الأوقاف والرعاية الصحية

د. أحمد عوف محمد عبدالرحمن*

يحاول هذا البحث إلقاء الضوء على الدور الرائد الذي لعبه الوقف في التنمية الصحية والنهضة الطبية في المجتمع الإسلامي والوقوف على بعض الأمثلة على ذلك.

لعل من الأمور اللافتة للنظر تلك الشمولية أو ذلك التكامل الذي تتصف به العقيدة الإسلامية.. فكراً وسلوكاً، فلا نكاد نسأل عن قضية من القضايا أو مسألة من المسائل أو علماً من العلوم إلا ووجدنا قدراً لا بأس به - قلّ أو كثر - في تراثنا العريق، وهذا لا شك جانب من جوانب الإعجاز، تتجلى فيه القدرة الإلهية، فيزداد الإنسان إيماناً ويقيناً، ويظل يرد النبع الصافي للإسلام، كي ينهل منه في أي عصر من العصور[١].

والناظر إلى تعاليم الإسلام، يجد أنها جمعت بين حاجة الجسم وحاجة الروح، ومن ثم اتسمت هذه التعاليم بالوسطية والقصد، واستجابت لمطالب الفطرة السليمة في يسر واعتدال، فلا عنت ولا حرج ولا تعصّب ولا مغالاة[٢].

وإلى جانب ذلك، فهي تؤكد على التكافل بمفهومه الشامل بين المسلمين، وتقضي على كل من لا يبذل من عواطفه وجاهه وماله لغيره من إخوانه المؤمنين بأنه ليس منهم ولذلك لا يعرف المجتمع الإسلامي فردية أو أنانية أو سلبية، وإنما يعرف إخاء صادقاً وعطاءً سخياً، وتعاوناً على البر والتقوى دائماً[٣].

(*) طبيب وباحث، جمهورية مصر العربية.

(١) د. نجيب الكيلاني، في رحاب الطب النبوي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط/٥ - ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، بيروت، لبنان، ص٧.

(٢) أ. د. محمد الدسوقي، الوقف ودوره في تنمية المجتمع الإسلامي، القسم الثاني، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية، العدد ٦٥ من سلسلة قضايا إسلامية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(٣) المرجع السابق، القسم الأول، العدد ٦٤، ص٥.

«الوقف» و«الصحة» في الإسلام

من المعلوم أن التنمية الاجتماعية تشمل إلى جانب النواحي الاجتماعية المتعارف عليها كالمعونات الاجتماعية وغيرها، الحاجات الروحية والتعبدية، والاحتياجات الصحية، والجوانب التعليمية والثقافية[١].

و«الصحة»، وبعض مرافق «الخدمات العامة»، والكثير من «مؤسسات الرعاية الاجتماعية»، جميعها كانت من المجالات الرئيسة التي اجتذبت اهتمام مؤسسي الأوقاف منذ فجر الإسلام على تباين انتماءاتهم الاجتماعية، وتفاوت أوضاعهم الاقتصادية ومستوياتهم الثقافية. وقد أنتجت «شروطهم» - التي وضعوها في حجج وقفياتهم الخاصة بتلك المجالات - العديد من المؤسسات الأهلية، فظهرت المستشفيات والعيادات الطبية وغيرها[٢].

مفهوم «الوقف»:

يدل مفهوم الوقف في لغة العرب على معنى التحبيس والتسبيل. يقال: وقفت كذا: اي حبسته، ووقف الأرض وقفاً: أي حبسها[٣]. ونقل الكمال بن الهمام عن ابن جني - أحد كبار علماء اللغة - قوله: «أخبرني أبو علي الفارسي، عن أبي بكر، عن أبي العباس، عن أبي عثمان المازني قال: يقال: وقفت داري وأرضي، ولا يعرف أوقفت من كلام العرب. ثم اشتهر المصدر - أعني الوقف - في الوقوف،، فقيل هذه الدار وقف، فلذا جمع على أفعال، فقيل: وقف وأوقاف، كوقت وأوقات»[٤].

وأما معنى الوقف في الاصطلاح فهو عند أبي حنيفة: حبس العين واستبقاء الأصل على ذمة ملك الواقف وحكمه، والتصدق بالمنفعة على جهة الخير[٥]. وعند المالكية: حبس

(١) د. فؤاد عبدالله العمر، إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية، ط/١، الكويت، الأمانة العامة للأوقاف ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٥.

(٢) د. إبراهيم البيومي غانم، الأوقاف والسياسة في مصر، ط/١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، دار الشروق، القاهرة، ص٢٩١.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، طبعة بدون رقم أو تاريخ، «و.ق.ف».

(٤) الكمال بن الهمام، فتح القدير، الجزء ٦، ص٨٦، طبعة بدون رقم أو تاريخ، دار الكتب العلمية.

(٥) د. ياسر الحوراني، آفاق التعاون المشترك بين مؤسسة الوقف والمنظمات الأهلية، مجلة أوقاف، العدد ١، السنة الأولى، شعبان ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١٠٠.

العين الموقوفة لأحد المستحقين لمدة معينة يراها الواقف[١]. وعند جمهور الفقهاء، الشافعية والحنابلة والصاحبين هو حبس العين على ملك الله تعالى والتصدق بالمنفعة[٢].

مفهوم «الصحة»:

إذا نظرنا في التعريف الحديث الذي وضعته «منظمة الصحة العالمية» عن مفهوم الصحة، فإننا نجد أن ذلك التعريف يؤكد أن الإنسان الصحيح ليس هو السليم بدنياً فحسب، لأن صحة البدن جانب واحد من جوانب الصحة، ومن ثم ولكي تكون الصحة في صورتها المثالية المكتملة لا بد وأن تشتمل على سلامة النواحي البدنية والنفسية والعقلية والاجتماعية.

وحيث يقرأ الباحث في كتاب الله، أو يطلع على الأحاديث النبوية الشريفة، وسيرة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وحياته مع أصحابه وأتباعه، وفي بيته ومسجده، وفي جهاده وسلمه، وفي حله وترحاله، وفي علاقاته المتنوعة، حينما ينظر الإنسان نظرة شاملة إلى عالم الإسلام الرحب الفسيح يجد للطب وللصحة مكانة كبيرة، فالطب الإسلامي يتمثل كل ما له علاقة بصحة الإنسان كالتغذية والنظافة والانحرافات العضوية والنفسية وبعض طرق العلاج، وكافة النواحي البيئية والاجتماعية والشخصية وغيرها مما يتعلق بالصحة العامة[٣].

حفظ الصحة في الإسلام:

يقال: إن المقياس الحضاري لأمة ما، هو مدى اهتمام هذه الأمة بصحة أفرادها، ورعاية مرضاها.[٤]

وليس أدل على عناية الإسلام بصحة الأبدان من أن العبادات المفروضة، وما تتطلبه من شروط وأركان وأعمال تحفظ للجسد صحته ونشاطه وقوته وتحقق أهم غرض من أغراض علم الطب، ألا وهو حفظ الصحة.

---

(١) القرافي، الفروق، مطبعة البابي الحلبي، مصر، جـ٢، ص١١١.
(٢) د. ياسر الحوراني، المرجع الأسبق، نفس الصفحة.
(٣) د. نجيب الكيلاني، مرجع سابق، ص٨.
(٤) حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت، سنة ١٩٨٨م، طبعة بدون رقم، ص١٩٦.

ومع أن الرعاية الصحية ظاهرة في الدين الإسلامي، فإن ذلك لا يعني أن القرآن الكريم كتاب طب، ولكنه اشار إشارات صريحة إلى ما يهم الناس من هذا العلم، وترك لهم مجال البحث فيما عدا ذلك. فقد أشار إلى أصول الطب الثلاثة، ومجامع قواعده: «إن قواعد طب الأبدان ثلاث: حفظ الصحة، والحمية من المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة». قال تعالى في آية الصوم: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[1]. فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلباً لحفظ صحته وقوته عما يضعفها من مشاق السفر. وقال سبحانه في آية الوضوء: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[2]. فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب، خيفة أن يصيب جسده ما يؤذيه. وأما عن استفراغ المواد الفاسدة، فقال عز وجل في آية الحج: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[3]. فأباح لمن كان من معشر المحرمين مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشعر فحلق، أو كان به أذىً من رأسه كقمل وصداع، أن يحلق في الإحرام استفراغاً للمادة التي أوجبت له الأذى، ويقاس على هذا كل استفراغ يؤذي انحباسه[4].

وقد تجمعت تعاليم مهنة الطب وآدابها ورعاية المرضى في مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة، التي أمرت بالمحافظة على الجسم والعقل، ونهت عن كل ما يضر الناس في صحتهم من تلويث الطريق، ومصادر المياه، وحثت على نظافة الأبدان واللباس، واهتمت بتغطية الطعام والشراب للمحافظة عليه من الملوثات والعدوى، ورغّبت في رياضة الأجسام، لما في الرياضة من حكمة وفوائد جمَّة[5].

والمسلم يقدر عناية دينه بصحة الأبدان إذ هي سبيل الجهاد، ووسيلة العمل، فيعنى بالوقاية، وهي أول خطوة في طريق العافية، والتي تقيه آفات المرض وآلامه، ومن أجلها

(١) الآية ١٨٤ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٦ من سورة المائدة.
(٣) الآية ١٩٦ من سورة البقرة.
(٤) حنيفة الخطيب، المرجع السابق، ص١٦ (بتصرف).
(٥) نفس المصدر، ص١٤.

كانت النظافة فريضة وشرطاً للعبادة في الإسلام، وفي سبيلها - أيضاً - كان تحريم الخبائث من الطعام والشراب[١].

يقول لوبون[٢]: «لم يجهل العرب أهمية حفظ الصحة، وكان العرب يعرفون جيداً أن علم الصحة يعلمنا طرق الوقاية من الأمراض التي لا يستطيع الطب شفاءها، وكانت مناهجهم الصحية سليمة منذ القدم. وما أمر به القرآن من الوضوء والامتناع عن شرب الخمر، ثم ما سار عليه أبناء البلاد من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني في غاية الحكمة.. وقد عرف الطبيب العربي أن حفظ الصحة موجود، وردّها مفقود»[٣].

وكان الأطباء يبذلون عناية خاصة بتدبير الوسائل التي تساعد على حفظ الصحة عملاً بالحكمة القائلة: «درهم وقاية، خير من قنطار علاج»[٤].

هكذا يكون المسلم.. مثلاً للإنسان الصحيح في فطرته وتكوينه، وفي قوته واكتمال عافيته، فهو الصورة الصادقة للطاقة البشرية التي تنهض بالعبء وتعمر الأرض وتحمل أمانة الحياة. ومن أجل العافية كان حث الإسلام على التداوي وأمره بالعلاج حيث سبق غيره في الأمر بالتداوي، وحَصْر الأمراض الخطيرة والأوبئة العامة والمُعْدية، وبذلك وضع الأسس الصحية لمواجهة أخطار الطواعين وغيرها من الأمراض المُعْدية، أو ما يسمَّى في العرف المعاصر «بالحجر الصحي» أو «الطب الوقائي».

ولقد أدرك المسلمون منذ فجر الإسلام ما يجب عليهم نحو أبدانهم وصحتهم، موقنين تمام اليقين بأن الله - عز وجل - ما أنزل من داء إلى خلق له دواء إلا داء الهرم. وفي ذلك تقوية لنفس المريض والطبيب، والحث على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عنه، فإن المريض إذا استقرت نفسه وعلم أن لدائه دواء تعلق قلبه بروح الرجاء. وكذلك الطبيب إذا علم وأيقن أن لهذا المرض دواء، سعى في طلبه وتحصيله، والتنقيب والبحث عنه[٥].

---

(١) د. مصطفى عبدالواحد، شخصية المسلم كما يصورها القرآن، طبعة وزارة التربية والتعليم، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، مصر، ص٢٣١.

(٢) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٤٩٢. انظر: حنيفة الخطيب، ص٤٠.

(٣) حنيفة الخطيب، مرجع سابق، ص٤٠.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر، ص١٨.

هذا، وأول ما عرف في الإسلام من مستشفيات، كان في غزوة الخندق[١]، إذ ضرب النبي – صلى الله عليه وسلم – خيمة للجرحى، فلما أصيب سعد بن معاذ، قال صلى الله عليه وسلم: «اجعلوه في خيمة رفيدة أعوده من قريب»، فكانت تلك الخيمة هي أول مستشفى حربي متنقل في تاريخ الإسلام، ثم توسّع فيه الخلفاء والولاة بعد ذلك، حتى أصبح المستشفى المتنقل مجهزاً بجميع ما يحتاجه المرضى من علاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة.

وأول مستشفى ثابت، أنشئ في عهد عبدالملك بن مروان، وكان خاصاً بالمجذومين[٢]، وجعل فيها الأطباء، وأجرى لهم الأجور، ثم تتابع إنشاء المشافي، وقد كانت تعرف باسم «البيمارستانات»[٣]، وكثرت أعدادها، حتى أنه لم تخل بلدة صغيرة في العالم الإسلامي من مستشفى أو أكثر، ويذكر أن قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى[٤].

آفاق التعاون بين مؤسسة الوقف والمؤسسات الطبية:

لا يخفى أن الوقف يمثل أحد أهم العناصر الأساسية للنمو الحضاري والتطور الاجتماعي للأمة الإسلامية ويعكس التجربة التاريخية التي عاشتها الأمة عبر أجيال ممتدة، مما أسهم في ربط حاضر الأمة بماضيها، وحافظ على التمسك بعرى أصالتها وهويتها الحضارية. ومما لا شك فيه أن الوقف يعمل إطاراً مؤسسياً مرناً، يتحرك وفقاً للقواعد الثابتة والمصالح المتطورة، ويستوعب المتغيرات الاجتماعية المستجدة عبر حدود الزمان والمكان[٥].

لقد شرّع الإسلام الوقف أداة اجتماعية مرادفة وموازية لأدوات أخرى، كالزكاة والصدقات والهبات والكفايات والنفقات بين الأقارب وسائر موارد بيت المال، استهدف

(١) كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس للهجرة. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، جـ٣، ص١٥٧.

(٢) المجذومون جمع مجذوم، وهو من أصابه الجذام. والجذام: مرض تتآكل منه الأعضاء وتتساقط. انظر: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، طبعة وزارة التربية والتعليم، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٩٧.

(٣) البيمارستان، هو لفظ فارسي مركَّب من «بيمار» أي: مريض، و«ستان» أي: محل، أي: دار المرضى. ويقال: البيمرستان والمارستان. انظر: د. محمد محمود أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ط/١، ١٩٨٠م، هامش ص١٥٥.

(٤) أ. د. محمد الدسوقي، مرجع سابق، ص٣٧.

(٥) د. ياسر الحوراني، مرجع سابق، ص٩٨.

من خلالها تحرير الإنسان من الجوع والمرض والجهل وجميع أشكال التخلف، وعلى نحو مماثل تماماً لتحريره من الخرافة والضلالة والكفر والشرك جميعاً[١].

وإذا أجيز لنا اعتبار المستشفيات - أو البيمارستانات - أهم مظهر من مظاهر الرعاية الصحية، كانت دراسة البيمارستانات في الإسلام أمراً ضرورياً للباحثين في تاريخ الأوقاف والرعاية الصحية.

ولقد كان للوقف أكبر الإسهام في إنشاء تلك البيمارستانات. فقد أنشئت أول دار لمداواة المرضى في الإسلام في عهد عبدالملك بن مروان الأموي، وجعل فيها الأطباء، وأجرى لهم الأجور[٢]. كما أنشئ البيمارستان المنصوري في عام ٦٨٢هـ لعلاج الملك والمملوك، والكبير والصغير، وكان مستشفى متخصصاً، يعجز الواصف عن وصف حسن ترتيبه وتنظيمه، حتى إنه ليضاهي المستشفيات الحديثة في ذلك[٣]. وكان للوقف دور هام وفريد في تمويل تجهيز المستشفيات بالإضافة إلى مبانيها، وكذلك رواتب الأطباء ومساعديهم والمختبرات، وكذلك تمويل كليات الطب وكليات الصيدلة والمتدربين فيها[٤].

وإضافة إلى إسهام الوقف في المستشفيات الكبيرة أو المتخصصة، فقد كان له دور في بناء المراكز الصحية المتنقلة، لخدمة المرضى في الأماكن النائية البعيدة عن مراكز الحضارة والمدن. ومن الأوقاف الفريدة في مجال الرعاية الصحية وقف صلاح الدين؛ لإمداد الأمهات بالحليب اللازم لأطفالهن[٥].

أما في العصر الحديث، فقد كان لديوان الأوقاف في مصر عام ١٩١٣م أحد عشر مستوصفاً وعيادة، قامت بمعالجة ما يقارب مليون شخص. كما أقام المحسنون ثلاثين مشروعاً طبياً خلال النصف الأول من القرن العشرين، واشترطوا الصرف عليها من أوقاف مخصصة لذلك[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص٩٩.

(٢) أ. د. محمد الدسوقي، القسم الثاني، مرجع سابق، ص٣٧.

(٣) علي جمعة محمد، الوقف وأثره التنموي، من أبحاث ندوة «نحو دور تنموي للوقف»، الكويت، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص١١٧.

(٤) د. فؤاد العمر، مرجع سابق، ص٢٧.

(٥) محمد بن عبدالعزيز بنعبدالله، الوقف في الفكر الإسلامي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٤٩.

(٦) انظر: د. فؤاد العمر، مرجع سابق، ص٢٧.

هذا، ولم تكن هذه الأموال الموقوفة مقصورة على علاج الإنسان، وإنما شملت الحيوان أيضاً والوقف على الحيوان أيضاً إذا كان يتغيا المحافظة على الثروة الحيوانية التي اعتمدت عليها حياة المسلمين في حلهم وترحالهم، وفي أيام حروبهم وسلمهم، فإن هذا الوقف من جهة أخرى يعبِّر عن لمسة إنسانية رحيمة حض عليها الإسلام[١].

كما أن تسبيل المياه وبناء دور المياه العامة، يعد من أفضل الطرق الصحية في الوقاية من العديد من الأمراض التي حرص الوقف على القيام بها. ففي سلطنة عمان، كانت هناك أوقاف المجائز - أي الحمامات - التي يستخدم ريعها في تعمير المجائز - وهي حمامات عامة يتم إنشاؤها للنساء على الأفلاج - أي: الترع[٢]، حماية للصحة العامة للناس. ومن المشاريع الوقفية في العصر الحديث، العين العزيزية في جدة، والتي تعد وقفاً للملك عبدالعزيز - رحمه الله - وذلك عندما اشترى عيوناً من وادي فاطمة وأوصلها إلى جدة، وأوقفها وأنشأ للوقف إدارة أهلية قامت بإنشاء سكن للحجاج في المطار والميناء، فأراحت الحجاج، وكوَّنت دخلاً تنفق منه على غرض الوقف الأساسي[٣].

دور الوقف في تقديم الخدمات العلاجية

باعتبار البيمارستانات - أو المستشفيات - هي أهم وأكثر الوسائل فاعلية في الرعاية الطبية، فإننا سنناقش دور الوقف في الخدمات العلاجية عن طريق دوره في تمويل المستشفيات وملحقاتها.

فلقد كان للبيمارستانات أوقاف تعولها، وكان الواقفون يسجِّلون الوقف في حجج مكتوبة، ينقشون بعض ما فيها على الحجارة، ويبيِّنون فيها أن الغاية هي تشييد البيمارستان والاعتناء بالمرضى، وكانت عائدات الأوقاف، المداخيل الأساسية التي تفي بحاجات البيمارستان من طعام ولباس ومحروقات وأدوية ورواتب الأطباء والممرضين وبقية العاملين في المؤسسة[٤].

(١) أ. د. محمد الدسوقي، القسم الثاني، مرجع سابق، ص٣٧.
(٢) سعيد الأغبري، تجربة سلطان عمان في إدارة الأوقاف، من أبحاث ندوة «نحو دور تنموي للوقف»، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص٢٠٠.
(٣) د. فؤاد العمر، مرجع سابق، ص٢٧.
(٤) حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، مرجع سابق، ص٢٢١.

تأسيس البيمارستانات:

لقد تنافس الولاة في تشييد البيمارستانات، ووقف الأموال عليها، كما وقف كثير من المسلمين الدور والأراضي لبناء المستشفيات وعلاج المرضى[١].

فمنذ فجر الإسلام، اهتم بعض ولاة مصر بتقديم الرعاية الصحية لمختلف طبقات الشعب، وكان أول بيمارستان أنشئ في مصر في عصر ولاة الأمويين في دار أبي زبيد بزقاق القناديل بالفسطاط، ثم أنشئ بيمارستان المعافر سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م. ويبدو أن هذين البيمارستانين كانا من الصغر وقلة الأهمية بحيث أن بعض المؤرخين اعتبروا أن بيمارستان أحمد بن طولون الذي أنشأه عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م أول بيمارستان أنشئ في مصر، والذي عرف أيضاً بالمارستان العتيق، أو بالمارستان الأعلى، وأوقف عليه ابن طولون دخل بعض الأبنية منها دوره في الأساكفة، والقيسارية، وسوق الرقيق، وشرط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، وجعل له حمامين: أحدهما للرجال، والآخر للنساء[٢]. وأدخل ابن طولون في هذا البيمارستان ضروباً من النظام جعلته في مستوى أرقى المستشفيات في الوقت الحاضر. فكان إذا دخله مريض تنزع ثيابه، ويودع ما معه من المال عند أمين البيمارستان، وتقدم له ثياب خاصة من البيمارستان. وكان المرضى يتناولون الأدوية والأغذية مجاناً، ويظل المريض بالبيمارستان حتى يتم شفاؤه، فيقدم له فرّوج ورغيف فإذا أكلهما أذن له بمغادرة البيمارستان، بعد أن تردّ إليه ثيابه ونقوده. وبلغ من عناية أحمد بن طولون بهذا البيمارستان أنه كان يتفقده بنفسه يوماً في كل أسبوع، كان في الغالب يوم الجمعة، فيطوف على خزائن الأدوية، ويتفقد أعمال الأطباء، ويشرف على سائر المرضى، ويعمل على مواساتهم، وإدخال السرور عليهم، بما في ذلك المحبوسين من المجانين، حتى غافله في يوم أحدهم ورماه برمانة، كادت تقضى عليه، فلم يعاود البيمارستان بعد ذلك. وفي بيمارستان ابن طولون قيل[٣]:

ولا تنس مارستانه واتساعه ... وكوستة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاته ... ورفقهم بالمعتفين ذوي الفقر
فللميت المقبور حسن جهازه ... وللحي رفق في علاج وفي جبر

(١) أ. د. محمد الدسوقي، القسم الثاني، مرجع سابق، ص٣٧.

(٢) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، دراسة تاريخية وثائقية، ط/١، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م، ص١٥٥.

(٣) من قصيدة لسعيد القاضي، ذكر فيها منشآت أحمد بن طولون، نقلاً عن: د. محمد محمد أمين، مرجع سابق، هامش ص١٥٦، وانظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار، جزء ١، ص٢٢٣.

وفي أثناء وصاية كافور على الأمير أبي القاسم أنوجور الأخشيدي تم بناء المارستان الأسفل وذلك سنة ٣٤٦هـ/ ٩٧٨م، وحبّس عليه قيسارية، ودور، وحوانيت، وزُوِّد بما يلزمه من أدوات وآلات وألحق به ميضاتين إحداهما برسم تغسيل الموتى، وسقاية، وحمامين[١].

ولعل أشهر البيمارستانات في العصرين الأيوبي والمملوكي تلك التي أنشئت في عهد كل من: صلاح الدين الأيوبي والمنصور قلاوون. فقد افتتح السلطان صلاح الدين الأيوبي ثلاثة بيمارستانات: الأول في إحدى قاعات القصر الفاطمي الكبير، وهو البيمارستان العتيق، كما أمر بإعادة فتح مارستان الفسطاط القديم، وفي أثناء زيارته للإسكندرية عام ٥٧٧هـ/ ١١٨٢م أمر بإقامة مدرسة، وألحق بها بيمارستاناً. وتولَّى الإنفاق على هذه البيمارستانات ديوان الأحباس، على اعتبار أن الرعاية الصحية في ذلك العهد كانت من أعمال البر والخير، أكثر منها من مهام الدولة الحاكمة[٢].

ومن أشهر البيمارستانات التي أنشئت في العصر المملوكي، وذاع صيتها في أنحاء مصر وخارجها، وحظيت برعاية سلاطين المماليك وأمرائهم، كان البيمارستان المنصوري، الذي أنشأه الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي، وذلك في موضع قاعة ست الملك ابنة الملك العزيز بالله الخليفة الفاطمي، والتي عرفت فيما بعد باسم دار الأمير فخرالدين جهاركس، ثم دار موسك، ثم عرفت بالدار القطبية نسبة إلى الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فقد ظلت في ورثته حتى أخذها السلطان قلاوون من ابنة الملك العادل مؤنسة خاتون، وعوضها عن ذلك بقصر الزمرد برحبة باب العيد، ورسم السلطان بعمارتها مارستاناً وقبة ومدرسة، وتولَّى الإشراف على هذه العمارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، فأبقى القاعة على حالها، وجعلها مارستاناً[٣].

مساهمة الأطباء في الوقف على المستشفيات:

ولم يكن تأسيس المستشفيات وقفاً على الخلفاء والسلاطين والرجال الأثرياء، وإنما دأب على تأسيسها الأطباء أيضاً أو اشاروا إلى إقامتها. فقد أشار سنان بن ثابت على المقتدر بأن يتخذ بيمارستاناً ينسب إليه، فأمر بإنشائه في باب الشام وسماه البيمارستان

(١) د. محمد محمد أمين، مرجع سابق، ص١٥٦.
(٢) نفس المصدر، ص١٥٧ (بتصرف).
(٣) نفس المصدر، ص١٥٨ (بتصرف).

المقتدري، وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار. وافتتح سنان بن ثابت – أيضاً – بيمارستان السيدة الذي بناه بسوق يحيى على دجلة، وجلس فيه ورتب المتطببين، واستقبل المرضى، وكانت النفقة عليه في كل شهر ستمائة دينار.

وعندما نجح سنان بن ثابت في تقويم أطباع الأمير بجكم، وبيّن له الفرق بين الخير والشر، عمل الأمير بنصيحة سنان، وأنشأ بواسط في وقت المجاعة دار ضيافة، وببغداد بيمارستاناً يعالج فيه الفقراء، ورفه الرعية، وأنصف في معاملاتها[١].

وروي أن سبب بناء بيمارستان ميافارقين هو أن ابنة نصير الدولة ابن مروان مرضت وكان يحبها كثيراً، فآلى على نفسه أنها متى برئت أن يتصدق بوزنها دراهم. فلما عالجها زاهد العلماء وشفيت، أشار على نصير الدولة أن يبني بهذه الأموال بيمارستاناً ينتفع به الناس، ويكون له بذلك أجر عظيم، فأمره ببنائه، وأنفق عليه أموالاً كثيرة، ووقف له أملاكاً تقوم بكفايته، وجعل فيه من الآلات وجميع ما يحتاج إليه أشياء كثيرة.

ومن مآثر الأطباء في هذا الصدد ما رواه ابن أبي أصيبعة عن بدر الدين ابن قاضي بعلبك فقال: «ومما وجدته قد صنعه من الآثار الحسنة التي تبقى مدى الأيام، ونال بها من المثوبة أوفر الأقسام، إنه لم يزل مجتهداً حتى اشترى دوراً كثيرة ملاصقة للبيمارستان الكبير الذي أنشأه ووقفه الملك العادل نورالدين محمود بن زنكي – رحمه الله – وتعب في ذلك تعباً كثيراً واجتهد بنفسه وماله حتى أضاف هذه الدور المشتراة إليه وجعلها من جملته وأكبر بها قاعات كانت صغيرة للمرضى، وبناها أحسن البناء، وشيدها وجعل الماء فيها جارياً، فتكمل بها البيمارستان، وأحسن في فعله ذلك غاية الإحسان[٢].

ومن مكارم أخلاق الأطباء ما حدث به علي بن محمد بن أبي الصلحي الكاتب عن القطيعي أحد أطباء مصر المشهورين أنه حوَّل أحد دوره إلى ما يشبه البيمارستان يأوي إليه المرضى من الفقراء، فيعالجهم ويقدم لهم الأغذية، والأدوية ويقوم بخدمتهم مجاناً، وكان ينفق أكثر مدخوله في هذا السبيل[٣].

(١) حنيفة الخطيب، مرجع سابق، ص١٧٨.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.

تنوع المستشفيات، ودقة إدارتها:

ولقد تنوعت المستشفيات من حيث الخصوص والعموم، فهناك مستشفيات لبعض طوائف الأمة كرجال الجيش أو المسجونين، كما أن هناك مستشفيات لعلاج أمراض خاصة، وإلى جانب هذه المشافي أنشئت البيمارستانات العامة، وكانت هذه تفتح أبوابها لمعالجة الجمهور، وكانت قسمين منفصلين بعضهما عن بعض: قسم للذكور، وقسم للإناث. وكل قسم فيه قاعات متعددة، كل واحدة منها لنوع من الأمراض.

وكما كانت هناك أوقاف لعلاج الأمراض العضوية كانت هناك أوقاف - أيضاً - لعلاج الأمراض النفسية، بل إن بعض هذه الأوقاف يمثل نظرة إنسانية لم تعرفها أية حضارة بشرية[١].

وتدل الوثائق الوقفية على المستشفيات سواء أكانت خاصة أم عامة على نظام دقيق من حيث الإدارة والإشراف الطبي، ووسائل العلاج، وكان من يمارس مهنة الطب لا يسمح له بها حتى يؤدي امتحاناً أمام كبير أطباء الدولة، وكان هذا الامتحان في صورة دراسة علمية في موضوع طبي، وقد تكون هذه الدراسة من تأليفه أو من تأليف أحد كبار علماء الطب، ولكن له عليها دراسات وشروح، فيمتحنه فيها فإن أحسن الإجابة أجازه كبير الأطباء بما يسمح له بمزاولة مهنة الطب، ويروى أن بعض الأطباء في عام ٣١٩هـ في أيام الخليفة المقتدر أخطأ في علاج رجل فمات، فأمر الخليفة أن يمتحن جميع الأطباء في بغداد من جديد، وكان عددهم وقتئذ نحو تسعمائة طبيب[٢].

ويلاحظ أن مداخيل الأطباء من البيمارستانات، كانت زهيدة جداً إذا ما قورنت بمداخيلهم من القصور الملكية. ومثال ذلك ما ذكر في وقفية الجامع القيمري في دمشق. فقد جاء في كتاب خطط الشام ما يأتي: «قرأت في كتاب الجوامع والمدارس صورة وقف البيمارستان القيمري فإذا فيه: هذا وقف ابي الحسن بن أبي الفوارس القيمري على بيمارستانه في الصالحية على معالجة المرضى والمعاجين والأشربة وأجرة الطبيب. يصرف إلى الطبيب في كل شهر: الواحد سبعون درهماً ونصف غرارة قمح، والأدنى ستون درهماً ونصف غرارة قمح، وللمشارف في كل شهر أربعون درهماً ونصف غرارة قمح، وللكحال في كل شهر خمسة وأربعون درهماً ونصف غرارة قمح»[٣].

(١) أ. د. محمد الدسوقي، القسم الثاني، مرجع سابق، ص٣٨-٤٢ (بتصرف).
(٢) نفس المصدر، ص٣٨.
(٣) حنيفة الخطيب، مرجعه سابق، ص١٤٢-١٤٣.

وقفية السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري[١]:

ومن الوثائق الوقفية على المستشفيات وعلاج المرضى المسلمين، والتي تعبِّر في جلاء عن كثرة الأموال الموقوفة للرعاية الصحية، فضلاً عن الدقة في تنظيم العمل وتحديد الاختصاصات، تلك الوثيقة الخاصة بالبيمارستان المنصوري الذي أنشأه الملك المنصور قلاوون بالقاهرة سنة ٦٨٣هـ، فقد جاء في مستهلها الإشارة إلى الغرض من إقامة هذا البيمارستان، وعدد المنتفعين به من مرضى المسلمين من رجال ونساء، من الأغنياء والفقراء المحتاجين على حد سواء،على اختلاف أجناسهم وتباين أمراضهم، وفي هذه الإشارة ما يدل على مدى أهمية البيمارستان ومساهمته الجليلة في تقديم الرعاية الصحية للناس جميعاً في أيام حكم المماليك[٢].

وهذا البيمارستان كان عبارة عن مستشفى عام، وكان مقسماً إلى قسمين: أحدهما للذكور، والآخر للإناث. وكل قسم مقسم إلى قاعات، حسب أنواع الأمراض، ولكل قسم ما بين طبيب أو ثلاثة بحسب اتساع القسم وعدد المرضى، وله رئيس يتولى الإشراف عليه.

وتمدنا وثيقة وقف السلطان قلاوون بكثير من المعلومات عن هذا البيمارستان الشهير، وعن الخدمات الجليلة التي تؤدى للمرضى فيه، والتي كان يصرف عليها من ريع الوقف، وأهم هذه الخدمات: توفير الأسرَّة، والفرش اللازمة للمرضى وتوفير الأدوية والعقاقير على اختلاف أنواعها، والغذاء المطلوب لكل مريض، تبعاً لحالته الصحية، ومن أروع ما يتعلق بالغذاء أن يقدم طعام كل مريض بزبدية خاصة به من غير أن يستعملها مريض آخر، ووجوب تغطيتها، وإيصالها إلى المريض بهذا الشكل[٣].

ومن تلك الخدمات أيضاً: الإضاءة، والماء، وترتيب الفراشين والقُوَمَة الذين يتولون أعمال النظافة وغسل ملابس المرضى والقيام بمختلف مصالحهم التي يحتاجون إليها[٤].

كما يوضح لنا الواقف في هذه الوثيقة بعض الأنظمة التي كان معمولاً بها، والتي تعتبر من أسس الرعاية الصحية الحديثة، من ذلك ما يشترطه من ضرورة تحضير الأدوية في أوانها وتخزينها لحين الحاجة إليها، على أن يصرف لكل مريض ما يحتاج إليه فقط دون زيادة أو نقصان، فقد كان للبيمارستان خزانة خاصة كاملة للشراب. كذلك

(١) نفس المصدر، ص٣٩.
(٢) أ. د. محمد الدسوقي، القسم الثاني، مرجع سابق، ص٣٩.
(٣) نفس المصدر.
(٤) د. محمد محمد أمين، مرجع سابق، ص١٦٣.

راعى الواقف حالة الجو في مصر في فصل الصيف، فاشترط ضرورة صرف مراوح من الخوص ليستخدمها المرضى في التخفيف من حرارة الصيف. كذلك حرص الواقف على أن يكون هناك ما يغطى به غذاء المرضى، لمنع تلوثه، وأن يتناول كل مريض وجباته من الغذاء دون مشاركة مع مريض آخر؛ زيادة في الحيطة، واتباعاً لأساليب صحية، أصبحت بمرور الزمن، ونتيجة للعمل بشرط الواقف، من التقاليد الصحية المرعية[١].

ومن الوظائف التي رتبها الواقف بالبيمارستان، ما يماثل وظيفة الصيدلي والممرض في العصر الحديث، فقد رتّب رجلين - اشترط فيهما الأمانة والديانة - يتولى أحدهما حفظ الأدوية والعقاقير، ويكون مسؤولاً عن صرف الأدوية حسب أوامر الأطباء، فيسلمها للرجل الآخر لتوزيعها على المرضى، وعليه أن يتأكد من أن كل مريض تناول الدواء الموصوف له، وعليه كذلك الإشراف على المطبخ، وتوصيل الطعام إلى المرضى كل حسب الموصوف له[٢].

كذلك اهتم الواقف بتنظيم أمر البيمارستان الطبي والعلاجي تنظيماً دقيقاً، فيأخذ المحتسب - وهو من يقوم بعمل الحسبة - على الأطباء عهداً بمزاولة العمل بأمانة، دون أن يؤذوا أحداً، كما كان المحتسب لا يعطي إذن العمل إلا بعد إجراء الامتحان المقرر حسب اختصاص كل منهم. وهذه الإجراءات التي يقوم بها المحتسب نحو مختلف فئات الأطباء تدل على حرص الدولة على مراقبة حسن العمل، ومحاسبة كل من يعمل في هذا المجال إذا قصّر أو أهمل[٣].

كما حدد الواقف مواعيد تواجد الأطباء بكل دقة، فشرط ضرورة تواجد الأطباء الكحّالين (أطباء العيون) صباح كل يوم، حتى لا يأتي مريض للعلاج ويرد. وأيضاً توضح لنا الوثيقة نقطتين من الأهمية بمكان: الأولى: ضرورة مراجعة الطبيب الكحّال (طبيب العيون) للطبيب الطبائعي (طبيب الأمراض الباطنية)؛ للنظر سوياً في علاج المريض الذي قد يرجع مرض عينيه إلى أسباب باطنية، وتبيِّن لنا هذه النقطة مدى التعاون بين الأطباء في فروع الطب المختلفة في ذلك العصر، وهو ما يقابل أحدث وسائل العلاج وتشخيص الأمراض في العصر الحديث. والنقطة الأخرى: حرص الواقف على ضرورة تواجد الأطباء بالبيمارستان ليلاً مجتمعين أو متناوبين، مما يدل على مدى اهتمام الواقف

(١) نفس المصدر، ص١٦٢-١٦٨ (بتصرف).
(٢) نفس المصدر.
(٣) أ. د. محمد الدسوقي، مرجع سابق، ص٤٠.

بالرعاية الصحية، وضرورة الاحتياط لمواجهة الحالات الطارئة والحوادث المفاجئة، فضلاً عما قد يحدث من أزمات لمرضى البيمارستان ليلاً[١].

هذا، ولم يقتصر أثر الأوقاف في مجال الرعاية الصحية على المترددين على البيمارستانات، بل شمل ذلك أيضاً المرضى الفقراء في بيوتهم، ولقد نص السلطان قلاوون في كتاب وقفه على أن: «مَن كان مريضاً في بيته، وهو فقير، كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج إليه من حاصل هذا البيمارستان من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها، مع عدم التضييق في الصرف على مَن هو مقيم به، فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر في يومه تجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله إلى مدفنه ومواراته في قبره ما يليق بين أهله» أ. هـ[٢].

أما من شفاه الله - عز وجل - من علته، فإن الوثيقة تنص على أن يصرف إليه - بحسب حاله - كسوة ومبلغاً من المال يكفيه إلى أن يصبح قادراً على العمل دون أن يؤثر ذلك على مصالح المرضى، أو التضييق عليهم، وإن كان الأمر متروكاً إلى اجتهاد الناظر ورأيه وفق ما تدعو إليه الحاجة.

وتختتم تلك الوثيقة بهذه العبارة التي تؤكد المساواة بين الناس في العلاج: «..وعلى الناظر في هذا الوقف أن يراعي تقوى الله سبحانه وتعالى سراً وجهراً، ولا يقدّم صاحب جاه على ضعيف، ولا قوياً على من هو أضعف منه، ولا متأهلاً على غريب، بل يقدّم في الصرف إليه زيادة الأجور والثواب، والتقرب إلى رب الأرباب» أ. هـ[٣].

البيمارستانات الشهيرة في بلاد الإسلام:

لقد اعتنى العرب عناية فائقة بإنشاء البيمارستانات، وجعلوا الرعاية الطبية حقاً لكل المواطنين، وجهّزوا المستشفيات المتنقلة بجانب المستشفيات الثابتة، وملأوا بها بقاع الامبراطورية الإسلامية من بغداد شرقاً إلى بلاد المغرب والأندلس غرباً، كما عمّت هذه المستشفيات بلاد الشام ومصر، حتى السجون كان الأطباء يدخلونها لعلاج المرضى فيها.

(١) د. محمد محمد أمين، مرجع سابق، ص١٦٢-١٦٨ (بتصرف).
(٢) أ. د. محمد الدسوقي، مرجع سابق، «القسم الثاني» ص٤١. وانظر: د. محمد محمد أمين، مرجع سابق، ص١٦٩.
(٣) نفس المصدر.

يقول الدكتور «جوزيف جارلند» في كتابه «قصة الطب»: «وقد أسس العرب عدداً من المستشفيات الممتازة، جعلوها مراكز لدراسة الطب ولعلاج المرضى كأحدث المستشفيات الآن، وقد بلغ عدد هذه المستشفيات أربعة وثلاثين موزعة بين أنحاء الامبراطورية. وإن كان أهمها مستشفيات بغداد ودمشق وقرطبة والقاهرة»[1] أ. هـ.

أولاً - المستشفيات التي أنشئت في بلاد الشام:

اول مستشفى ثابت أقيم في بلاد العرب كان في دمشق، أمر بإقامته حاكم الدولة الأموية الوليد بن عبدالملك وهو أول من فكّر في إنشاء مستشفى عام ثابت يستقبل المرضى، ويعالج فيه أصحاب العلل.

بيمارستان أنطاكية: بناه المختار بن الحسن بن بطلان الذي توفي عام ٤٥٥هـ.

البيمارستان الكبير النوري: بناه الملك العادل نورالدين محمود بن زنكي بدمشق. وقد توفي هذا الملك عام ٥٦٩هـ. واشترط أن يخصص للفقراء والمساكين ولكنه إذا وجد فيه دواء ليس موجوداً في البلاد فلا يمنع عن الأغنياء حالة تعذر حصولهم عليه. وقد جاء وصف هذا البيمارستان في كتاب «رحلة ابن جبير»، قال: «دخلت دمشق عام ٥٨٠هـ وبها مارستانان: قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الدواء والغذاء. واهتم به الملك العادل وعيّن فيه أبا المجد بن أبي الحكم الباهلي، وجعل أمر الطب مفوضاً إليه، فكان يجتمع بالمشتغلين بالطب بعد تفقد أحوال المرضى في الإيوان الكبير الموجود بالبيمارستان، وتحصل بينه وبينهم مباحثات طبية.

ومن الأطباء الذين خدموا في هذا البيمارستان: موفق الدين عبدالعزيز عبدالجبار السلمي، وشمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللبودي، وسديد الدين محمود بن عمر الشيباني، المعروف بابن رقيقة، ومهذب الدين أبو الحسن علي بن عيسى النقاش، وابن المطرن، وابن الجرائحي، والدخوار، وابن الحاجب، ورضي الدين الرحبي، وعماد الدين أبو عبدالله بن عباس الدنيري.

(١) أ. محمود السعيد الطنطاوي، أضواء على تاريخ الطب، سلسلة دراسات في الإسلام، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، العدد ٨٣، السنة ١٦، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص١٦٦.

وفي مدينة حلب: بنى الملك العادل نورالدين محمود بن زنكي، بيمارستاناً داخل باب أنطاكية، ووقف عليه الأموال لنفقات المرضى والأطباء. وقد عمل في هذا البيمارستان الطبيب ابن بطلان، وهاشم بن محمود ناصر السروجي الحسيني.

وفي القدس: بنى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، بيمارستاناً كبيراً. وعمل فيه من الأطباء: يعقوب بن صقلاب المقدس، ورشيد الدين أبو المنصور ابن أبي الفضل بن علي الصوري.

وبيمارستان عكا، فقد أمر الناصر صلاح الدين الأيوبيّ: أن تكون أسقف عكا مستشفى لعلاج المواطنين.

وفي شبه الجزيرة العربية كان يوجد في مكة بيمارستان، يعرف بالبيمارستان المستنصري العباس، وبيمارستان المدينة، وقد خدم فيه - بأمر الملك الظاهر بيبرس - الطبيب محيي الدين أحمد بن الحسين بن تمام. وبيمارستان الري، وعمل فيه الرازي صاحب كتاب «الحاوي».

ثانياً - وفي بلاد العراق:

بيمارستان بغداد الذي أمر ببنائه هارون الرشيد، وسماه بيمارستان الرشيد، وقد تولى إدارته: ماسويه الخوزي، انتدبه الرشيد لذلك من جنديسابور، وتولى مراقبته جبريل بن بختيشوع. وبيمارستان أبي الحسن علي ابن عيسى الجراح، وبيمارستان بدر، غلام المعتضد بالله. أنشأه من ماله الخاص، وكذلك علي بن عيسى أنشأه من ماله الخاص.

وبيمارستان السيدة أم المقتدر التي توفيت عام ٣٢١هـ، وقد تولى رعايته الطبيب سعيد بن سنان بن ثابت.

والبيمارستان المقتدري، وذلك أن سنان بن ثابت بن قرة أشار على الملك المقتدر بالله، أن يبني مستشفى للمرضى وتسمى باسمه. ومن الأطباء الذين عملوا فيه، جبريل بن عبدالله بن بختيشوع، ويوسف الواسطي.

وبيمارستان ابن الفرات، وزير المقتدر، وبيمارستان أبي الحسن بحكم الذي توفي عام ٣٢٩هـ.

والبيمارستان العضدي، أنشأه عضد الدولة البويهي[١] عام ٧٣٢هـ، وعين فيه الأطباء والخدم للعناية بالمرضى. ومن الأطباء الذين عملوا فيه: جبريل بن عبدالله بن

(١) يحيى محمود ساعاتي، مرجع سابق، ص١٠٧.

بختيشوع، ونظيف الرومي، وأبو الحسن علي بن بكس، وأبو يعقوب الأهوازي، وأبو الحسن بن كشكرايا، وأمين الدولة بن التلميذ.

ومن البيمارستانات بالعراق، البيمارستان الفاروقي، وبيمارستان الموصل، الذي بناه الأمير مجاهد فايماز، نائب قلعة الموصل عام ٥٧٢هـ.

ثالثاً - وفي مصر:[١]:

بيمارستان زقاق القناديل، من أزقة فسطاط مصر. وبيمارستان المعافر، في حي المعافر بالفسطاط قرب القرافية. والبيمارستان العتيق الذي أنشأه أحمد بن طولون. والبيمارستان الأسفل بالفسطاط، الذي أمر ببنائه كافور الإخشيدي. وبيمارستان السقطيين بالقاهرة. وبيمارستان الناصري. ومارستان قلاوون بالقاهرة. والبيمارستان المؤيدي، الذي أنشأه الملك المؤيد.

رابعاً - وفي بلاد المغرب والأندلس:

بيمارستان «تونس». ومن الأطباء الذين عملوا فيه: الطبيب محمد الشريف الحسني الزكراوي، الذي توفي عام ٨٧٤هـ.

وبالمغرب الأقصى بيمارستان «مراكش» الذي بناه المنصور أبو يوسف، وكان كل يوم جمعة بعد الصلاة يخرج، ويذهب إلى المرضى، ويسألهم عن حالهم، وما زال مستمراً على هذا حتى توفي عام (٥٩٥هـ). ومن الذين خدموا في هذا البيمارستان من الأطباء: أبو إسحاق إبراهيم الداني ومحمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المتوفى عام ٧٥٧هـ. وبيمارستان «سلا» وبيمارستان «سيدي فرج» بفاس. بناه أبو يعقوب بن يوسف بن يعقوب بن عبدالحق عام ٦٨٥هـ.

ومن بيمارستانات بلاد الأندلس: بيمارستان «غرناطة» الذي بدأ السلطان محمد الخامس في بنائه عام ٧٦٧هـ.

وهكذا تضافرت جهود أبناء الأمة الإسلامية على النهوض بعلم الطب فناً وعلماً وعملاً، لتوفير رعاية طبية سليمة بني الإنسان[٢].

---

(١) لمزيد من التفاصيل: انظر المباحث السابقة بهذا البحث. ود. محمد محمد أمين، مرجع سابق، ص١٥٥. وأ. محمود السعيد الطنطاوي، مرجع سابق، ص١٦٥.

(٢) أ. محمود السعيد الطنطاوي، مرجع سابق، ص١٦٦.

وقفة مع تلك الوقفيات الرائعة:

إن ثمة أوقاف على الرعاية الصحية تمثل نظرة إنسانية لم تعرفها حضارة بشرية. منها:

أ - جاء في بعض الوثائق الوقفية على المستشفيات تخصيص وقف لوظيفة يقوم بها اثنان من الرجال. وكانت مهمتهما أن يقفا بالقرب من المريض الميئوس من شفائه، ويسأل كل منهما الآخر عن حقيقة علة ذلك المريض دون أن يلحظ أن ذلك جارٍ بينهما عمداً، فيجيبه رفيقه بصوت يسمعه المريض بأنه لا يوجد في علته ما يشغل البال، وأن الطبيب سيأمر بإخراجه من المستشفى بعد أيام لشفائه التام[١].

فهذا الحديث بين الرجلين حول علة المريض، يمنحه نشاطاً معنوياً ونفسياً يتغلَّب به على علته، وقد يكون سبباً في شفائه بإذن الله، وإذا لم تنجح هذه الوسيلة في العلاج، ومات المريض؛ فإنه يموت سعيداً متفائلاً مرتاحاً.

ب - وفي تونس، كان هناك وقف قديم لناحية لم تخطر على بال أحد أن يرصد لها مالاً، ويوظِّف لها وظيفة، وهي «التسبيح في المئذنة ليلاً»، فقد رأى بعض المسلمين أن بعض المرضى لا يتسطيعون النوم لما بهم من مرض ووجع، فوقف الواقف مالاً أو عقاراً أو داراً على المؤذّنين الذين يحيون الليل في المئذنة، وهم يسبّحون الله - عز وجل - بأصواتهم الرقيقة الرخيمة، ليتسلى بذلك المرضى والأَرقُون في بيوتهم، فإنهم حين تنام المدينة، ويهجع الناس، وتسكن الدنيا، يأتي صوت ذلك المؤذن العذب الرخيم من المئذنة رقيقاً حلواً مسلياً باعثاً على النشاط والصبر، وهو يرتل قصائد دينية أو تسبيحات ربانية، فيظل المريض يصغي ويسمع ويشارك في التسبيح لنفسه، ويصلي على النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى الصباح، وقد يخف ألمه، وينسحب أرقه؛ وينام وما أحلاها من نومة على تراتيل ذلك المؤذن وتسبيحه العظيم.

ومثل هذا الوقف الإنساني الرائع الغريب لم تنفرد به تونس، وإنما عرف في عدد من بلاد المسلمين[٢].

---

(١) أ. د. محمد الدسوقي، مرجع سابق، القسم الثاني، ص٤١.

(٢) نقلاً عن مجلة الوعي الإسلامي، العدد ١٢٧، جمادى الأولى، ١٣٩٦هـ، ص٤٩، ٥٠.

الوقف ودوره في ازدهار العلوم الطبية

أدرك علماء الطب في الأمة الإسلامية أن أفضل وسيلة يكتسب الطالب بها علم الطب هي: الممارسة العملية. حيث إن علم الطب يقوم على التجربة والملاحظة. وأن المستشفيات هي خير مكان لتلك الدراسة العملية، فأباحوا للطلاب الدراسة العملية في البيمارستانات، بعد الدراسة النظرية في الكتب الطبية بإشراف الأستاذ المختص. ولم يكن يسمح لمن يدرس الطب أن يبدي رأياً قاطعاً في العلاج للمرضى إلا إذا قام بتدوين آراء الأطباء السابقين والأعلام المعاصرين. وكان هذا يعتبر بمثابة بحث طبي!!

تقول العلامة الألمانية «سيجريد هونكه» في كتاب: «شمس العرب تسطع على الغرب»: «كانت المستشفيات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب. وكان الطلاب يتلقون فيها علومهم، ويتعلمون كل ما قاله أبو قراط وجالينوس وما جاء به أساتذتهم العرب الكبار أنفسهم. وكانوا يستمعون إلى كل هذا أيضاً في أحد الجوامع وفي مدارس خاصة طبية كان يديرها أطباء معروفون. واتبع العرب في تدريس الطب طريقة علمية تقضي على طلاب العلم في الطب أن يدخلوا مع المرضى في احتكاك دائم مثمر. فيقابلوا ما قد تلقنوه نظرياً بما يشاهدونه بأعينهم. وهكذا تخرجت طبقة من الأطباء الذين لم يشهد العالم لهم في ذلك الوقت مثيلاً إلا في عصرنا الحديث»[1].

وبتنظيم الدراسات الطبية الهادفة، وعقد امتحانات لطلاب الطب، طهرت مهنة الطب من الكهنة والسحرة والدجالين وأدعياء الطب. تقول «سيجريد هونكة»[2]: «لقد امتازت كتابات الأطباء العرب على أنواعها المختلفة بحسن التنظيم والتسلسل والشرح، وامتازت بروح علمية أصيلة، عبّرت عن موهبة منهجية نظامية رائعة وعبقرية خلّاقة».

وللأوقاف أيضاً أثر كبير في النهوض بعلم الطب، والعمل على ترقيته، ذلك أن خدمات البيمارستانات لم تقتصر على معالجة المرضى، بل تعدى الأمر ذلك إلى تدريس الطب والاهتمام به، ويشبه هذا إلى حد كبير ما يتم في كبار المستشفيات في العصر الحديث من إلحاق كليات الطب بالمستشفيات حيث تتوافر الدراسة العملية، وممارسة الطب تحت يد الأساتذة.

---

(١) كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» نقلاً عن: أ. محمود السعيد الطنطاوي، مرجع سابق، ص١٥١-١٦٦ (بتصرف).

(٢) نفس المصدر.

وفي وثيقة وقف البيمارستان المنصوري بما ينص على تعيين شيخ للاشتغال بالطب، يكون من بين أطباء البيمارستان، وخصّص له الواقف مكاناً محدداً لإلقاء دروس الطب على طلبته. فنصَّت الوثيقة على أن «يصرف الناظر في هذا الوقف لمن ينصّبه شيخاً للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه، يجلس بالمسطبة الكبرى المعينة له في كتّاب الوقف المشار إليه، للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه، في الأوقات التي يعينها له الناظر، ما يرى صرفه إليه، وليكن من جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة على العدد». أ.هـ[١].

وكذلك في مجال الوقف على تعليم الطب، نجد أن وثيقة وقف حسام الدين لاجين، نصت على ترتيب مدرّس للطب بالجامع الطولوني، والوقف على هذا المدرس وعشرة طلبة «يشتغلون بالطب»، فنصّت هذه الوثيقة على أن: «...رجلاً عارفاً بطب الأبدان، مشهور المعرفة للأمراض والأدوية وهو القاضي الأجلّ الصدر الريس العالم الفاضل شرف الدين محمد بن المرحوم شهاب الدين أحمد بن أبي الحوافر، الطبيب السلطاني، يجلس بالجامع المذكور لإقرار الطب وتعليمه، ويرتب له من الطلبة عشرة يشتغلون بالطب ويلزمهم المدرس بحفظ ما يجب حفظه في الطب وعرضه وتصحيحه، ويوضح لهم مشكله...»[٢].

وكانت العادة في البيمارستان النوري أنه بعد أن يعود الطبيب مرضاه الخاصين بعد الظهر، كان يرجع إلى البيمارستان؛ ليعطي دروسه لبضع ساعات. فأبو المجد بن أبي الحكم كان عندما ينتهي من معالجة وتفقّد المرضى في البيمارستان النوري وفي القلعة، يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، ويحضر الاشتغال. وكان نورالدين[٣] قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه، ويقعدوه بين يديه، ثم تجري مباحثات طبية، ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات، ثم يركب إلى داره. وكان لكل من: مهذب الدين بن النقاش، وشمس الدين اللبودي في البيمارستان نفسه مجلس للمشتغلين عليهما[٤].

كما أنّ بعضاً من مشايخ الأطباء وكبار رؤسائهم كان يجعل له مجلساً لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه في منزله، أو في مكان آخر أعدّ لهذه الغاية، أو في أثناء تجواله.

---

(١) د. محمد محمد أمين، مرجع سابق، ص١٧٠.
(٢) نفس المرجع السابق، ص١٧١.
(٣) هو السلطان نورالدين بن محمود بن زنكي.
(٤) حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، مرجع سابق، ص٢٦٦.

ويروى أنه كان لأبي الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين مجلساً للطب في منزله، وكان له عدة تلاميذ يتناوبونه في كل يوم للقراءة عليه. وكان أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن ملكا، يريد تلقي العلم على يديه، ولكن دون جدوى، فتقرب أوحد الزمان من بواب أبي الحسن، فسمح له أن يجلس في دهليز الشيخ، بحيث يسمع منه جميع ما يقرأ عليه، وما يجري معه من البحث. وبعد مضي سنة، طرحت مسألة للنقاش عند الشيخ فلم يستطيعوا حلها، فلما تحقق أبو البركات من جهلهم في الإجابة، دخل واستأذن الشيخ في الإجابة عنها، فقال له: قل إن كان عندك فيها شيء. فأجاب عنها بشيء من كلام جالينوس، وحدد اليوم والوقت والشهر الذي جرت فيه المحاضرة، فأعجب الشيخ بذكائه وقرّبه منه من ذلك الوقت، وصار من خيرة تلاميذه.

وكان الشيخ مهذب الدين عبدالرحيم بن علي إذا تفرغ من البيمارستان، وتفقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرها وغيرهم، يأتي إلى داره، ثم يشرع في القراءة والدرس والمطالعة والنسخ. فإذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون إليه ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين. وكان يقرأ كل واحد منهم درسه ويبحث معه فيه، ويفهمه إياه بقدر طاقته، ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم إذا كان الموضوع يحتاج إلى توسع في البحث[١].

ويحدثنا ابن أبي أصيبعة كيف تلقّى الدروس على يد أساتذته في البيمارستان النوري، فيقول: «كنت بعدما يفرغ الحكيم مهذي الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض، وجملة ما يصف للمرضى، وما يكتب لهم من أبحاث، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداولاتها..».

ثم قال: «..وكان معه - أي: مهذب الدين - في البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران، وهو من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنواع العلاج، فتتضاعف الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، وما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها، وما كانا يصفان للمرضى». أ. هـ.[٢].

ويبدو أن عدد الطلاب الذين يتلقون الدروس عن أستاذ واحد كان لا يتجاوز الخمسين طالباً[٣].

(١) المرجع السابق، ص٢٦٩ (بتصرف).
(٢) حنيفة الخطيب، المرجع السابق، ص٢٦٦، نقلاً عن: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٧٣٢.
(٣) المرجع السابق، ص٢٦٧.

المدارس الطبيَّة الخاصة:

هذا، ولم تقتصر مدارس الطب على المدارس الملحقة بالبيمارستانات فقط، بل كانت توجد إلى جانب ذلك مدارس خاصة أنشأها الأغنياء. فقد وقف مهذب الدين عبدالرحيم بن علي المعروف بالدخوار في سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م داره التي «بدمشق عند الصاغة العتيقة شرق سوق المناخليين، وجعلها مدرسة تتابع فيها من بعده دراسة الطب». ووقف لها ضياعاً وعدة أماكن ينفق ريعها في مصالح المدرسة، وفي جامكية[١] المدرس وجامكية المشتغلين فيها، وأوصى بأن يكون المدرس فيها الحكيم شرف الدين علي بن الرحبي، وابتدأ بالصلاة في هذه المدرسة يوم الجمعة صلاة العصر ثاني ربيع الأول سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م. واستمر الرحبي في التدريس بها في صناعة الطب عدة سنين، ثم صار المدرس فيها فيما بعد الحكيم بدرالدين ابن قاضي بعلبك، ولما ملك دمشق الملك مظفر الدين بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل، كتب للحكيم بدرالدين ابن قاضي بعلبك منشوراً برئاسته على سائر الحكماء في صناعة الطب، وأن يكون مدرساً للطب في مدرسة الحكيم مهذب الدين، وتولى ذلك في يوم الأربعاء رابع صفر سنة ستمائة وسبع وثلاثين»[٢].

وفي عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م كان علم الطب من العلوم التي تدرس بالمستنصرية في بناية خاصة مقابل الباب الرئيسي للمدرسة المستنصرية. وهي عبارة عن صفّة[٣] فاخرة تحت الإيوان. وقد اتخذت هذه الصفة مكاناً لتدريس الطب ومداواة مرضى المستنصرية على اختلافهم. وكان طبيب المستنصرية يتردد إلى مرضاها في صباح كل يوم يتفقدهم وكان في المستنصرية مخزن فيه أنواع الأشربة والأدوية والعقاقير[٤].

الوقف على الكتب والمكتبات الطبية:

لقد تجاوز وقف الكتب والمكتبات عند العرب والمسلمين دور الكتب العامة والجوامع والمدارس إلى أنماط أخرى تظهر لنا أن الكتاب أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة الإنسان في

---

(١) الجامكية: مرتب موظفي الدولة. انظر: حنيفة الخطيب، المرجع السابق، هامش ص٢٦٧.

(٢) حنيفة الخطيب، المرجع السابق، ص٢٦٧.

(٣) الصّفة: شبه البهو الواسع الطويل. والصّفة: مكان مظلَّل في مسجد المدينة كان يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول. وهم «أهل الصفّة»، المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، طبعة وزارة التربية والتعليم، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٣٦٦. وانظر: المرجع السابق، ص٢٦٧.

(٤) المرجع السابق، ص٢٦٨.

أصقاع العالم الإسلامي لا يستغنى عنه، وهو الأمر الذي دفع بالواقفين إلى التوجه نحو كل منشأة وقفية عامة، وبالتالي إيجاد مكتبة بداخلها تلبي احتياجات مجتمعها المحدود، فنتج عن ذلك مكتبات في البيمارستانات والرُبُط والخانقاهات[١]. ووصل الأمر إلى إنشاء مكتبات وقفية في بعض المقابر.

والعجيب في الأمر أن تكون مكتبات البيمارستانات من أقدم ما عرف في تاريخ المكتبة العربية، رغم التخصص الدقيق للبيمارستان..!!

على أن هناك أوقافاً خاصة للإنفاق على تأليف الكتب في الطب والصيدلة، وبذلك استطاع العلماء أن يكتبوا أو يكملوا كتباً في العلوم الطبية، وكانت تلك الكتب مصادر المعرفة في الطب لعدة قرون في أوروبا[٢].

ولعل من أشهر تلك البيمارستانات التي ألحقت بها جملة كثيرة من الكتب الطبية: البيمارستان الطولوني بالقاهرة، والذي أنشأه أحمد بن طولون الذي حكم مصر والشام والثغور عام ٢٥٩هـ، وكان بمثابة مستشفى، وكلية طب، وجعل فيه خزانة كتب، احتوت على ما يزيد على مائة ألف مجلد، لم تكن في علوم الطب وحدها، بل في تخصصات متنوعة[٣].. والبيمارستان العضدي في بغداد، حيث أنشأه عضد الدولة البويهي في القرن الرابع الهجري، وألحقت به مكتبة كبيرة. كذلك البيمارستان النوري في دمشق، وكان السلطان نورالدين زنكي قد أوقف عليه جملة كثيرة من الكتب الطبية. وحظى البيمارستان المنصوري بالقاهرة باهتمام الواقفين، وكان من بينهم علاء الدين علي بن أبي حزم القرشي الدمشقي المعروف بابن النفيس، وقد أوقف داره وكتبه على البيمارستان المنصوري[٤].

(١) الرُبُط: جمع رِبَاط. وهي ملجأ الفقراء من الصوفية. والخانقاهات: جمع خانِقَاه. وهي كلمة فارسية معناها «بيت»، وجعلت لتخلي الصوفية فيها للعبادة والتصرف. (المعجم الوجيز، مرجع سابق، ص٢١٣ وص٢٥٢). وانظر: د. محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصرو مرجع سابق، ص٢٠٥.

(٢) أ. د. محمد الدسوقي، مرجع سابق، القسم الثاني، ص٤٣.

(٣) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ط/٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٧١.

(٤) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية: استبطان للموروث الثقافي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط/١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص١٠٦.

دار شفاء الربع الرشيدي[١]

إن جميع المنشآت العظيمة للربع الرشيدي والأوقاف التابعة والميزانية الكبرى كانت تقوم على محور تعليم العلوم المختلفة، وبعبارة أخرى كان الهدف النهائي لرشيد الدين فضل الله الهمداني من إقامة هذا الصرح، حبه للعلم وعلاقته الوطيدة بالعلم والعلماء.

وعلى سبيل المثال، كان أطباء دار شفاء الربع الرشيدي، وكما هو مدوَّن في حجة الوقف يتناوبون في الدوام؛ ليبقى المستشفى مفتوحاً طوال اليوم مع وجود طالب في الطب وصيدلي بشكل مناوبة، وكان على كل طبيب أن يعلِّم طالبين، أحدهما في الطب والآخر في الصيدلة، إضافة إلى ذلك كَتَبَ رشيد الدين إلى ابنه سعدالدين يقول: «خمسون طبيباً حاذقاً استقدمناهم من أفضل بلاد الهند ومصر والصين والشام وباقي البلدان، وأمرناهم بالتردد المتناوب في دار الشفاء، ووضعنا أمام كل طبيب عشرة من المتعلمين والطلبة المتفوقين؛ ليعلموهم هذا العلم الشريف، وقد بنينا للكحّالين (أطباء العيون) والجراحين والمجبِّرين (أطباء العظام) الموجودين في دار الشفاء المنشغلين بوظائفهم مستوصفاً قرب بستان رشيد آباد، أطلقنا عليه اسم «معالجة المعالجين» وأسكنا أصحاب الحرف والصناعات الذين جئنا بهم من البلدان الأخرى في أزقة خاصة».

ولقد كان موضع سكن الأطباء والطلبة في سرايا وحجرات خاصة، وكانت دورة التعليم في الطب خمس سنوات تبين للأستاذ أن الطالب بات قادراً على علاج المرضى وحده، يمنحه وطبقاً للعادة الجارية إجازة لممارسة مهنة الطب. وكان على الطبيب أن يعالج كافة سكان الربع الرشيدي القاطنين أو المسافرين والعمال، وقرر الواقف أن يقدم الدواء مجاناً يومي الاثنين والخميس لجيران الربع الرشيدي من أولاد الواقف والغلمان الذين أطلقهم والفلاحين والمزارعين في أوقاف الربع الرشيدي، وإذا ما تدهورت صحة أحد المسافرين، فإن على المتولي أن يحدد مكان استراحته؛ ليتولى الطبيب معالجته، ومن ثم مواصلة سفره[٢].

لقد كانت دار الشفاء أو المستشفى وحدة منفصلة ومجهزة في الرَّبع الرشيدي باعتبارها كلية طبيَّة، ذلك أن كل طبيب ممارس كان له خمسة عشر من الطلبة المتعلمين

---

(١) قسم من أقسام مركز الربع الرشيدي العلمي التربوي الوقفي، الذي أسسه وأوقفه رشيد الدين فضل الله الهمداني، الطبيب والمؤرخ والوزير الإسلامي المعروف، انظر: حسن اميدياني، مجمع الربع الرشيدي، مجلة أوقاف، العدد «١»، ص٥٠-٧٧.

(٢) أ. حسين اميدياني، مجمع الربع الرشيدي في مدينة «تبريز»، تجربة مؤسسية رائدة في الوقف، مجلة «أوقاف»، مرجع سابق، ص٥٠-٧٧.

في علوم الطب. وكان أطباء دار الشفاء في الربع الرشيدي - كما يبدو من حجة الوقف والمكاتبات الرشيدية - على نوعين: مجموعة كانت تعمل طوال اليوم، والأخرى كانت تعمل نصف الدوام. أما الأطباء الدائمون فكانوا في الفروع المختلفة: طبيب عام ومساعد طبيب للأمراض العامة، وطبيب عيون (كحّال)، وعدد من الجراحين وأطباء العظام (مجبّرون) ولم يكن لهؤلاء حق ممارسة المهنة الطبية في خارج الربع الرشيدي أو الخروج منه بدون إذن المتولي. وكان على الطلبة مواصلة الدراسة على مدى خمسة أعوام في مجال الطب، وفي نهاية المطاف كان عليهم أن يحصلوا على شهادة تمنحهم حق ممارسة الطبابة، وإلا فإنه لم يكن من حقهم ذلك. وكان لزاماً على الطلبة وأثناء ممارسة معالجة المرضى (بعد الظهر في أيام الاثنين والخميس) أن يكونوا مساعدين للطبيب، أي أن يتلقوا في الصباح الدروس النظرية في الطب، ويمارسون الطب عملياً بعد الظهر إلى جانب الطبيب الأستاذ، إضافة إلى ذلك هناك معيد إلى جانب الطبيب الأستاذ يساعده في التدريس ومعالجة المرضى وإعداد الأدوية[١].

وأما الأطباء غير الدائمين فهم يعملون نصف وقت الدوام، ويترددون على الربع الرشيدي، وكانوا يقومون بتدريس علم الطب، وربما كانوا يمارسون الطبابة أيضاً. وأغلب هؤلاء الأطباء كانوا يقدمون من مناطق بعيدة أو من بلاد أجنبية إلى مدينة تبريز، وكان لكل منهم عشرة من الطلبة يعلمونهم الطب - في حين أن لكل طبيب دائم مقيم خمسة من الطلاب - وكان محل سكنهم في محلة خاصة باسم «زقاق المعالجين»، في حين يسكن المقيمون في مجال الصالحية المجاورة للربع الرشيدي باعتبارها واحدة من أفضل محلات المدينة الرشيدية، يضاف إلى ذلك أنه كان لهؤلاء غرفة عمل خاصة في الربع الرشيدي، ولم يكن للأطباء غير المقيمين غرفة عمل في داخل الربع، وكان عددهم يبلغ خمسين طبيباً.

يبدو أن عدد طلبة الطب كان على الأقل خمسمائة طالب، إذا احتسبنا أن لكل طبيب غير مقيم عشرة طلاب، بغير الطلبة الذين كانوا يتلقون تعليمهم في داخل الربع. إن رغبة رشيد الدين بهذا الفرع من العلوم يرجع إلى أنه كان نفسه طبيباً حاذقاً معروفاً ومشهوراً. ناهيك عن أن خانات المغول كانوا على رغبة شديدة بالعلوم الطبية ويدعمونها ويحرصون عليها[٢].

(١) نفس المصدر، ص٧٤.
(٢) نفس المصدر، ص٧٥.

هكذا، كان للمسلمين أسلوبهم العلمي، ومنهجهم التربوي في دراسة الطب وعلاج المرضى، وهو الأسلوب الذي أخذه الغرب وطبّقه، وإن زعم أنه لم يأخذه عن المسلمين، ولكن الدراسة الموضوعية لتاريخ الطب تؤكد أن المسلمين كانوا هم الرّواد في هذا المجال، وأن غيرهم انتفع بتراثهم، وكان لديهم المرجع العلمي في دراسة الطب لفترة زمنية طويلة، وأن من الغربيين من كان يترجم العلوم الرياضية والطبية من العربية إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية، ويدَّعون أنها مؤلفات أوروبية، لم تعتمد على مصادر إسلامية، بل إن منهم مَنْ كان ينتحل أفكار ونظريات علماء المسلمين، كما فعل هارفي (ت: ١٦٥٧م) الذي زعم أنه أول من اكتشف الدورة الدموية، وهو في الواقع لم يكتشفها، وإنما ترجم ترجمة حرفيّة من اللاتينية ما قاله ابن النفيس (ت: ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) في هذا الموضوع. فهذا العالم المسلم الذي يسبق هارفي بنحو أربعة قرون، هو أول من اكتشف الدورة الدموية في تاريخ الطب، وليس ذلك الدعيّ الذي انتحل ما ليس له[١].

الوقف والرعاية الطبية في العصر الحديث:

بالرغم من أن مؤسسات الرعاية الطبية – بصفة عامة – قد حظيت باهتمام كبير من مؤسسي الأوقاف على مدى التاريخ الإسلامي؛ إلا أنه في العصر الحديث لم تظهر وقفيات ذات شأن في مجال إنشاء المستشفيات، أو الإنفاق عليها، وتوفير العلاج للمرضى الفقراء.

فمثلاً: في مصر، اقتصر الأمر على ما بقي من تلك المؤسسات الموروثة التي كانت تعرف «بالبيمارستانات»، مع محاولت غير مؤثرة لتطويرها دون إنشاء المزيد منها؛ لدرجة أن الإقدام على تجديد «بيمارستان» واحد من قبل أحد الذين اشتهروا بإنشاء الأوقاف في عهد الخديوي إسماعيل – وهو راتب باشا – قد استحق أن ينوِّه به رفاعة الطهطاوي في معرض إشادته بإسهام الأهالي بوقفياتهم في أعمال المنافع العمومية[٢].

وبعد تنظيم ميزانية «ديوان عموم الأوقاف» عقب صدور لائحة سنة ١٨٩٥م – الخاصة بالإجراءات الإدارية لذلك الديوان – تبين أن قسم المصروفات بتلك الميزانية كان يحتوي على بند خاص بمصروفات «المستشفيات والعيادات الطبية»، وحتى سنة ١٨٩٨م كان لديوان الأوقاف مستشفيان فقط هما: مستشفى الأزهر، ومستشفى قلاوون. وبعد

(١) أ. د. محمد الدسوقي، مرجع سابق، ص٤٥.
(٢) د. إبراهيم البيومي غانم، الأوقاف والسياسة في مصر. مرجع سابق، ص٢٩٤.

حوالي عشر سنوات بلغ عددها أحد عشر مستشفى، وعيادة طبقاً لميزانية الديوان في سنة ١٩١٢/١٩١٣م المالية.

واستمرت وزارة الأوقاف المصرية في مباشرة مهمة الإشراف على تلك المستشفيات والإنفاق عليها من ريع الوقفيات التي كانت تديرها وتنفذ شروط واقفيها؛ بما في ذلك شروطهم الخاصة بمعالجة المرضى، ودعم المؤسسات الصحية، وتوفير الدواء مجاناً للفقراء وغير القادرين.

وإلى جانب مستشفيات وزارة الأوقاف وعياداتها في مصر، كانت لها عيادتان في الأراضي الحجازية أيضاً، إحداهما ملحقة بالتكية[١] المصرية بمكة المكرمة، والأخرى ملحقة بالتكية المصرية بالمدينة المنورة. وظلت الوزارة تشرف عليهما وتمولهما من ريع أوقاف الحرمين الشريفين حسب شروط واقفيها بمصر، وذلك حتى سنة ١٩٥٢م.

ومع مطلع القرن العشرين، بدأ كبار الملَّاك من مؤسسي الأوقاف في الاهتمام بإنشاء المستشفيات الحديثة والإنفاق عليها من ريع وقفياتهم، فأقاموا حوالي ثلاثين مشروعاً طبياً خلال النصف الأول من القرن العشرين، واشترطوا دوام الإنفاق عليها من ريع وقفياتهم، كما اشترطوا معالجة المرضى الفقراء مجاناً.

هذا، ويعتبر مجال «الرعاية الصحية» من المجالات القليلة التي ظلت تجتذب بعض الواقفين فيما بعد سنة ١٩٥٢م، ومن ذلك وقفيات المستشار الفنجري على مستشفى الأزهر، وبعض المستشفيات المتخصصة في علاج السرطانات والأمراض الخبيثة[٢].

الخاتمة

إن التنمية الصحية هي عماد كل تنمية في المجتمعات، ولقد أدَّى الوقف مهمته في تلك التنمية على خير وجه، فساعد بذلك على النهوض في شتى المجالات.

ودور الوقف في الرعاية الصحية تخطَّى دائرة المحيط الإسلامي، وتجاوزها إلى البشرية جميعها، فكان دوراً عالمياً إنسانياً؛ لأن العقيدة التي كانت من وراء هذا الوقف -

(١) التكية، والجمع: تكايا، هي مؤسسة من مؤسسات الرعاية الاجتماعية، اختصت في معظم الأحوال برعاية من لا عائل لهم، والذين لا يقدرون على الكسب مثل العجزة وكبار السن المنقطعين، والأرامل من النساء اللائي لا يستطعن ضرباً في الأرض، وفقراء المتصوفة والدراويش والغرباء والمسافرين. وبعض التكايا كان مخصصاً لإسكان طلبة العلم، مثل: تكية محمد بك أبي الذهب لطلبة الأزهر. انظر: د. إبراهيم غانم، المرجع السابق، ص٣٠٧.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩٤-٣٠٦ (بتصرف).

ألا وهي عقيدة الإسلام الحنيف – عقيدة عالمية لا تعرف تعصباً إلا للحق، ولا تفريقاً بين الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح[١].

هذا، ولقد كان دور الأوقاف في الرعاية الصحية ذا شطرين: الشطر الأول: اهتم بتقديم الخدمات العلاجية للمرضى وفق أسلوب علمي، فالمريض يفحص في حجرة خاصة، وإذا أدخل المستشفى أعطي ثياباً غير ثيابه، وخصصت له حجرة مفردة؛ إذا كانت حالته المرضية تقتضي ذلك، وزودت هذه الحجرة بكل وسائل الراحة، وأشرف على علاجه أطباء اشتهروا بالمهارة، وقدم له الدواء والغذاء المناسبين لحالته، وبعد شفائه، وعند خروجه من المستشفى يقدم له لباس جديد كالذي أخذه يوم دخل، ثم يمنح مالاً يكفي لنفقته فترة نقاهته؛ حتى لا يضطر للعمل، فتنتكس حالته. وكانت المستشفى تقوم بأمر النفقة على أسرة المريض في مكان إقامتها طوال مدة علاجه وبقائه بالمستشفى.

وأما الشطر الآخر: فهو خاص بتنمية العلوم الطبية وازدهارها، فقد كتبت مؤلفات كثيرة في هذه العلوم، بتمويل من الأموال الموقوفة، وبذلك أدَّى الوقف رسالته العلمية في مجال الدراسات الطبية إلى جانب رسالته في علاج المرضى والمحافظة على الصحة العامة. ولقد تجاوزت رسالة الوقف في تنمية العلوم الطبية آفاق العالم الإسلامي إلى غيره، فكانت هذه العلوم أساس الأبحاث الطبية في الدول الغربية، وعلى ذاك الأساس قام صرح علم الطب الحديث، وكانت منجزاته العلمية الطبية الباهرة[٢].

النتائج:

١ – الإسلام دين التكافل والتعاون على البر والتقوى، ومن ثم عرف الوقف منذ عصر البعثة، ومنذ ذلك الحين تبارى المسلمون في وقف الأموال والأطيان على جهات الخير التي كادت تشمل كل نواحي الحياة.

٢ – لقد أدرك المسلمون منذ فجر الدعوة أن الإسلام دين القوة بمفهومها الشامل، فحافظوا على قوة أبدانهم وعافيتهم كضرورة دينية طِبْقًا لهذا المفهوم.

٣ – تحتوي الدراسات التاريخية على مادة علمية مفيدة حول أنواع الوقف ووثائقه، وأوجه الإنفاق من ريع الأعيان الموقوفة.

---

(١) نفس المصدر، ص٤٦، ٤٧ (بتصرف).

(٢) نفس المصدر.

٤ - ساهم الوقف في صنع الحضارة الإسلامية، فقد كان من وراء تنمية العلوم الطبية التي تجاوزت رسالته العالم الإسلامي إلى غيره، فضلاً عن رسالته السامية في مجال علاج الأمراض ومقاومة الأوبئة وحماية البيئة.

٥ - لم يقتصر دور الوقف في صنع الحضارة الإسلامية وتنميتها على العالم الإسلامي وإنما أسهم في صنع الحضارة الإنسانية وتقدم البشرية.

٦ - أثبتت الدراسات التاريخية العلمية الموضوعية أن المسلمين كانوا - ونسأل الله سلامة العودة - هم الرواد في مجال البحث والدراسة والاكتشافات، وأن غيرهم انتفعوا بما قدم المسلمون، وإن جحد كثير منهم ذلك.

٧ - أن وقف الكتب عند العرب والمسلمين كان العامل الأساسي والمهم في نشر الثقافة، وتوسيع دائرة المعرفة لدى الطلاب والدارسين على مدى قرون طويلة، من خلال المكتبات العامة والمدرسية ومكتبات البيمارستانات والجوامع وغيرها.

٨ - إن مستقبل الوقف، وعودته لوظيفته في صنع التقدم والرقي سيكون - بمشيئة الله تعالى - طيباً مشرقاً إذا ما خلصت النيات لله عز وجل -، وصلحت الأعمال، وتعاون الجميع وفق أسلوب علمي نحو العمل الجاد لإحياء سنة الوقف، وتطوير مصادره وأوجه استثماره ومجالات إنفاقه.

التوصيات:

١ - تنمية دور الأمة في مؤسسات الوقف إدارة ورقابة وتخطيطاً لتعود تلك المؤسسات إلى الصورة التي كانت لها، وتغيير الصورة المظلمة التي آل إليها حال الوقف في السنين العجاف الماضية؛ ليستأنف الوقف الإسلامي دوره التاريخي، ويقوم بالمهام التي عرفت له عبر تاريخ الإسلام.

٢ - ضرورة العودة إلى الوقف ليكون طريقاً نحو خدمة طبية مجانية متميزة للمرضى الفقراء والمحتاجين في العالم العربي والإسلامي كما كان عليه الأمر في الماضي وهو ما يتطلب بث الوعي بين الأثرياء والعلماء باتخاذ هذا الأسلوب ليكون مصدراً من مصادر العمل الخيري الهادف، وترغيب الناس بوقف أموالهم على جهات البر والإحسان، من خلال الإعلام الموجه والمدروس، والذي يؤثر في النفوس، فيدفعها للبذل والعطاء، ويعزز الثقة بالمؤسسات الوقفية.

٣ - إنشاء مؤسسة عالمية وقفية يعود نفعها للمسلمين في كافة بلاد الإسلام، وتقوم بمهمة التنسيق والمتابعة من أجل تطوير وتثمير ممتلكات الأوقاف على مستوى

العالم الإسلامي، فضلاً عن قبول التبرعات وتنمية الموارد واستثمارها في المشروعات الاقتصادية العديدة، مما يساعدها على تحقيق أهدافها الخيرية.

٤ – إعادة النظر في صياغة القوانين المنظمة للوقف في البلاد الإسلامية بما يتلاءم ومتطلبات العصر، مع الاهتمام بدراسة الأسباب التي أدت إلى جفاف نبع الأوقاف وانحسار دورها؛ حتى يمكن تفاديها مستقبلاً.

والله ولي التوفيق

ملحق البحث

نموذج عن وقفيات المؤسسات الطبية[1]
وقفية السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري

تعتبر هذه الوقفية من الوثائق التاريخية الثمينة، التي يستعان بها في تحقيق الزمن الذي وضعت فيه. وهي عبارة عن أربع وقفيات معاً الثلاث الأوليات منها تمت في عهد قلاوون نفسه على ثلاث سنين متتالية وهي سنوات ٦٨٤هـ/١٨٢٥و و٦٨٥هـ/١٢٨٦م و٦٨٦هـ/١٢٨٧م.

وهذه نص الوقفية كما وردت في كتاب تاريخ البيمارستانات[2]:

«هذا كتاب وقف صحيح شرعي، وحبس صريح مرضي، أمر بتسطيره وإنشائه وتحريره مولانا وسيدنا السلطان الأعظم السيد الأجل الملك المنصور العالم العادل الكافي الكافل، المؤيد المظفر، الهمام غياث الأنام، سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، محيي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين، ملك البحرين خادم الحرمين الشريفين، أبو المظفر قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقاليم والقلاع والحصون، خلد الله ملكه وجعل الأرض بأسرها ملكه وجدد له في كل يوم نصراً وملكه بساط الأرض براً وبحراً. وأشهد على نفسه الشريفة – صانها من كل محذور، وبلغها ما تؤمله في سائر الأوقات والدهور – بما تضمنه هذا المكتوب واشتمل عليه ونسب فيه الأشهاد إليه. وهو أنه – خلد الله ملكه وسلطانه، وأفاض على كافة الرعايا عدله وإحسانه – وقف وحبس وسبل وحرّم وأبّد وتصدق بجميع ما هو له – خلد الله ملكه – وفي يده وملكه وتصرفه وهو جميع الكامل المعروف بالعلمي أرضاً وبناء الذي هو بالقاهرة المحروسة بالقرة من قيسارية جهاركس..... إلخ ما وقفه من أملاكه وتراثه ندعه ونبدأ بشروط الواقف قال:

(١) لمزيد من الأمثلة انظر ملاحق كتاب: الطب عند العرب، حنيفة الخطيب، مرجع سابق.
(٢) عيسى أحمد، تاريخ البيمارستانات، مرجع سابق، ص ١٣٤ – ١٤٩.

اما بعد

فان أحق ما انتهزت فرص اجره العزائم وأحرزت مواهب بره الغنائم، وأجدر ما تنبه لاغتنام ثوابه كل نائم، وأولى ما توجه اليه كل متوجه وقام اليه كل قائم، ما عادت بالخيرات عوائده وزادت في المسرات زوائده، واستمرت على الآباء فوائده، واستقرت على التقوى بتطاول الآمال قواعده، وهي الأوقاف العميم برها، المقيم أجرها، الجسيم وفرها، الكريم ذخرها، فهي الحسنات التي هي أثمان الجنان، والقربات التي فيها رضوان الرحمن، والصدقات التي هي مهور الحور الحسان، والنفقات التي هي بحور الأجور لا اللؤلؤ والمرجان. ولايخفى مافيها من ادخال السرور على المريض الفقير، وايصال الحبور اجرها بتعبير، فطوبى لمن عامل مولاه العزيز الغفار، وراقبه مراقبة العالم بسره ونجواه في الايراد والاصدار، وأقرضه احسن القروض على حسب الامكان والاقتدار. وانتهز الفرصة بالاستباق واحرز باغتنام اجرها قصب السباق، فساعد الفقير المسلم على ازالة المه، ومداواة سقمه مساعدة تنجيه غدا من عذاب ربه الخلاق ورجاء ان تكون له بها عند الله الرتبة العظمى، والقربة التي لا يخاف باجرها ظلماً ولا هضما، والحسنة التي لا تبقى لذنبه غما. ولما علم بذلك مولانا السيد الأجل السلطان الملك المنصور العالم العادل.... فتقدم امره الشريف، العالي المنيف، الى ولي دولته، وغذى نعمته والمتشرف بخدمته، والمخصوص في هذا الوقف بوكالته، الجناب العالي الأمري الأجلي الأوحدي الكبيري المؤيدي المجاهدي المقدمي العضدي النصري العزي عزالدين، عزالإسلام ذخر الأنام، مقدم الجيوش نصرة المجاهدين عضد الملوك والسلاطبي أبي سعيد أبيك بن عبدالله الملكي الصالحي النجمي المعروف بالأفرم أمير جاندار الملكي المنصوري السيفي ادام الله نعمته.

أن يقف عنه خلد الله ملكه ويحبس ويسبل جميع ما هو جار في ملك مولانا السلطان الملك المنصور.... جميع أراضي البستان..... الذي ذلك بظاهرة القاهرة خارج بأبي الشعرية والفتوح غربي الجامع الظاهري المستجد العامر بذكر الله. على ما نص مولانا السلطان المنصور الموقوف عنه باذنه المذكور خلد الله مملكته على بيانه وذكر تعيينه ذكرا مصدقا خبره لعيانه، وشرح مصارفه شرحا يبقى على الأبد وترادف زمانه؟ انشاؤه، والبديع بناؤه، والمعدوم في الآفاق مثاله، والمشهور في الأقطار حسن وصفه وجماله، لقد اعجز همم الملوك الأول، وحوى كل وصف جميل واكتمل وحدث عنه العيان والخبر، ودل على علو الهمة فيه كالسيف دل على التأثير بالأثر، من اكحال تكون فيه معدة للسبيل، وأشربة تحلو كالسلسبيل، وأطباء تحضره في البكرة والأصيل، وغير ذلك مما يشفي السقيم ويبري العليل، وفروش وأوان، وقومة وخدّام ومطعوم ومشروب ومشموم أبداً على

الدوام وسيأتي بيان ذلك فيه مفصلا مبيناو ومروحاً معيناً. وهذا المارستان المذكور بالقاهرة المحروسة بين القصرين بخط المدارس الكاملية والصالحية والظاهرية، رحم الله واقفيها على يمنة السلاك من المدرسة الكاملية إلى باب الزهومة وفنادق الطواشي شمس الخواص مسرور رحمه الله، وفندقي الحجر والفاكهة والحرير بين والسقطيين والشرابيين وغير ذلك، وإلى بسرة السالك من ذلك إلى المدرسة الكاملية والجامعي الأصغر والأنور..... ويتوصل إلى هذا المارستان المذكور من الباب الكبير المبني بالرخام المفصوص المقابل لباب التربة الصالحية النجمية رحم الله واقفها المدخول منه إلى الدهليز المستطيل المسلوك منه إلى القبة المباركة التي على يمنة الداخل فيه والى المدرسة التي هي بالعلم الشريف معظمة.....

وهذا هو الذي وقفه مولانا السلطان الملك المنصور الموكل الموقوف عنه خلد الله ملكه بيمارستان لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين بالقاهرة ومصر وضواحيها من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف اجناسهم وأوصافهم وتباين امراضهم وأوصافهم، من أمراض الأجسام قلت أو كثرت اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التي حفظها أعظم المقاصد والأغراض، وأول ما يجب الإقبال عليه دون الانحراف عنه والاعراض، وغير ذلك مما تدعو حاجة الانسان إلى صلاحه واصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب والانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به، يدخلونه جموعا ووحدانا وشيوخا وشبانا، وبلغاء وصبيانا، وحرما وولدانا، يقيم به المرضى الفقراء من الرجاء والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم ويصرف ما هو معد فيه للمداواة ويفرق للبعيد والقريب، والأهلي والغريب، والقوي والضعيف، والدني والشريف، والعلي والحقير، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير. والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك، من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بانكار على ذلك ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله وطوله الجسيم، واجره الكريم وبره العميم، لينتفع بذلك .....

فقبل هذا الوكيل المذكور هذا التوكيل قبولاً صحيحا سائغا شرعياً، ووقف باذن مولانا السلطان الملك المنصور الموكل المذكور خلد الله مملكته، وحبس عنه المارستان المستجد المنصوري المحدود أعلاه، وعلى من يقوم بمصالح المرضى به من الأطباء والكحالين والجرائحيين وطباخي الشراب والمزاور والطعوم وصانعي المعاجين والأكحال والأدوية والمسهلات المفردة والمركبة، وعلى القومة والفراشين والخزان والأمناء والمباشرين

وغيرهم من جرت عادة أمثالهم بذلك وعلى من يقوم بمداواة المرضى من الأطعمة والأشربة والأكحال والشيافات والمعاجين والمراهم والأدهان والشرابات، والأدوية المركبة، والمفردة، والفرش والقدور والآلات المعدة للانتفاع بها في مثله. وسيأتي ذكر ذلك مفصلا فيه مبينا ومشروحا معينا، على أن الناظر في هذا الوقف والمتولي عليه يؤجر العقار من هذا الوقف المذكور وما شاء منه بنفسه أو بنائه مدة ثلاث سنين فما دونها بأجرة المثل فما فوقها ويؤجر الأراضي مدة ثلاث سنين فما دونها باجرة المثل فما فوقها ولا يدخل عقدا على عقد ولا يؤجره لمتشرد ولا لمتعزز، ولا لمن تخشى سطوته ولا لمن ينسى الوقف في يده، ويبدأ من ذلك بعمارة ما يجب عمارته في الوقف والبيمارستان، المذكور ذلك فيه من اصلاح وترميم أو بناء هديم، على وجه لا ضرر فيه ولا ضرار ولا إجحاف بأحد في جل ولا اصرار، وبتخير الناظر في تحصيل ريع هذا الوقف وحسن الحال على حسب الإمكان ويطلب ذلك حيث كان في كل جهة ومكان، بحيث لا يفرط ولا يفرط ولا يخرج، في سلوكه عن السنين المتوسطة ولا يهمل حقا معينا ولا يغفل عن امر يكون صلاحه بينا، لتكون هذه الصدقة صيبة مقبولة وهذا السعي يرجو مولانا السلطان الملك المنصور – خلد الله ملكه – به من ربه قبوله فقد قال ﷺ فيما ورد عنه من الأخبار الصحيحة المنقولة: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» ثم ما فضل بعد ذلك صرف منه الناظر ما يرى صرفه لمن يتولى انجاز ذلك واستخراج أجرته وعمارته وصرف ريعه في وجوهه المشترطة فيه وتفرقة أشربته وأدويته من شد وناظر ومشارف ومشاهد وكاتب وخازن، ويصرف لكل منهم من ريع هذا الوقف أجره مثله عن تصرفه في ذلك وفعله.

ولا يولي الناظر في هذا الوقف يهوديا ولا نصرانيا ولا يمكنه من مباشرة شيء من هذا الوقف بل يكون المتولي مسلما ظاهر الأمانة عارفاً بأنواع الكتابة، كافياً فيما يتولاه موصوفاً بدينه ودرايته وخبره ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف، ثمن ما تدعو حاجة المرضى إليه، من سرر حديد أو خشب على ما يراه مصلحته ولحف محشوة قطنا وطراريح محشوة بالقطن أيضاً، وملاحق قطن ومخاد طرح أو أدم محشوة على ما يراه ويؤدي إليه اجتهاده وهو مخير بين أن يفصل كل نوع من ذلك ويصرف أجرة خياطته وعمله وثمن حشوه وبين أن يشتري ذلك معمولاً مكملاً فيجعل لكل مريض من الفرش والسرر على حسب حاله وما يقتضيه مرضه عالماً في حق كل منهم بتقوى الله وطاعته باذلاً جهده وغاية نصيحته، فهم رعيته وكل مسؤول عن رعيته ويصرف الناظر في هذا الوقف ثمن سكر يصنعه أشربة مختلفة الأنواع، ومعاجين وثمن ما يحتاج إليه لأجل ذلك

من الفواكه والخمايز رسم الأشربة وثمن ما يحتاج إليه من أصناف الأدوية والمعاجين والعقاقير والمراهم والأكحال والشيافات والذرورات والأدهان والسفوفات والدرياقات والأقراص وغير ذلك يصنع كل صنع في وقته وأوانه، ويدخره تحت يده في أوعية معدة له، فإذا فرغ استعمل مثله من ريع هذا الوقف.

ولا يصرف من ذلك لأحد شيئاً إلا بقدر حاجته إليه ولا يزيده عليها، وذلك بحسب الزمان وما تدعو الحاجة إليه بحسب الفصول وأوقات الاستعمال ويقدم في ذلك الأحوج فالأحوج من المرضى والمحتاجين والضعفاء والمنقطعين والفقراء والمساكين ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم في كل يوم، وزبادي فخار برسم أغذيتهم وأقداح زجاج وغرار برسم أشربتهم وكيزان وأباريق فخار وقصارى فخار وزيت للوقود عليهم، وبماء من بحر النيل المبارك برسم شربهم وأغذيتهم و..... لأجل تغطية أغذيتهم عند صرفها عليهم وفي ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم اياها في الحر ويصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف في غير إسراف ولا إجحاف ولا زيادة على ما يحتاج إليه كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة لزيادة الأجر والثواب ويصرف الناظر في هذا الوقف لرجلين مسلمين موصوفين بالديانة والأمانة يكون أحدهما خازناً لمخزن حاصل التفرقة، يتولى تفرقة الأشربة والأكحال والأعشاب والمعاجين والأدهان والشيافات، المأذون له في صرف ذلك من المباشرين، ويكون الآخر أمينا يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته أقدام الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء المقيمين بهذا المارستان، ويفرق ذلك عليهم ويباشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك ويباشر المطبخ بها المارستان وما يطبخ به للمرضى من مزاور ودجاج وفراريج ولحم وغير ذلك، ويجعل لكل مريض ما طبخ له في كل يوم في زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر ويغطيها ويوصلها إلى المريض إلى أن يتكامل إطعامهم ويتوفى كل منهم غذاءه وعشاءه وما وصف له بكرة وعشية، ويصرف الناظر لكل منهما من ريع ها الوقف ما يرى صرفه إليه من غير حيف ولا شطط. وللناظر الشهادة عليهما في العدة اذا لم يكفيا ما اشترك عليهما مباشرته ويصرف له أجرة مثله من ريع هذا الوقف.

ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا المارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحالين والجرائحيين حسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى وهو مخير في العدة وتقرير الجامكيات ما لم يكن في ذلك حيف ولا شطط يباشرون المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا المارستان مجتمعين ومتناوبين باتفاقهم على التناوب، أو باذن الناظر في التناوب ويسألون عن أحوالهم وما يتجدد لكل منهم من زيادة مرض أو نقص ويكتبون بما

يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره، في دستور ورق ليصرف على حكمه، ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين أو متناوبين ويجلس الأطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء بهذا المارستان ولمداواة من يرد إليهم به من المسلمين بحيث لا يرد أحد من المسلمين الرمداء من مداواة عينه بكرة كل يوم ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها ويرفقون بالرمداء في ملاطفتهم وإن كان بينهم من به قروح أو أمراض في عينه تقتضي مراجعة الكحال للطبيب الطبائعي، راجعه وأحضره معه وباشر معه من غير انفراد عنه ويراجعه في أحوال برئه وشفائه ويصرف الناظر في هذا الوقف لمن ينصبه شيخا للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه يجلس المسطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه في الأوقات التي يعينها له الناظر ما يرى صرفه إليه وليكن جملة أكباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن العدد ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف للقومة والفراشين الرجال والنساء بهذا البيمارستان ما يرى صرفه إلى كل بحسب عمله على أن كلاً منهم يقوم بخدمة المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا البيمارستان وبغسل ثيابهم وتنظيف أماكنهم وإصلاح شؤونهم والقيام بمصالحهم على ما يراه من العدة والتقرير بحيث لا يزيد في العدة ولا في المقادير على الحاجة اليه في ذلك بحسب الزمان والمكان ويصرف الناظر ما تدعو الحاجة إليه في تكفين من يموت بهذا البيمارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف ما يحتاج إليه برسم غسله وثمن كفنه وحنوطه وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته في قبره إلى السنة النبوية والحالة المرضية، ومن كان مريضا في بيته وهو فقير كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج إليه من حاصل هذا المارستان من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها مع عدم التضييق في الصرف على من هو مقيم به، فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر في موته بتجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله إلى مدفنه ومواراته في قبره ما يليق بين أهله.

وليس للناظر في هذا الوقف أن ينزل بهذا المارستان من المرضى ولا من المختلين ولا من الأطباء ولا من المباشرين ولا من أرباب الوظائف بهذا المارستان يهودياً ولا نصرانياً فإن فعل شيئاً من ذلك أو أذن فيه ففعله مردود وانه فيه غير معمول به، وقد باء بسخطه وائمه. ومن حصل له الشفا والعافية ممن هو مقيم بها المارستان المبارك صرف الناظر إليه من ريع هذا الوقع المذكور كسوة مثله على العادة، بحسب الحال من غير زيادة تقتضي التضييق على المرضى والقيام بمصالحهم، كل ذلك على ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده بحسب ما تدعو إليه الحاجة ويحصل منه مزيد الأجور لمولانا السلطان الملك المنصور سيف الدينا والدين، أعز الله به الدين وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين فإن نقص ريع

الوقف المذكور عن استيعاب المصارف المذكورة أعلاه، قدم الناظر صرف الأهم فالأهم من ذلك، من الأطعمة والأشربة والأدوية والسفوفات والمعاجين ومداواة الرمد، وتقديم الأحوج فالأحوج بحسب ما تقتضيه المصلحة وزيادة الأجور والثواب وعلى الناظر في هذا الوقت أن يراعي تقوى الله سبحانه وتعالى سراً وجهراً ولا يقدم صاحب جاه على ضعيف ولا قوياً على ما هو أضعف منه ولا متأهلاً على غريب، بل يقدم في الصرف إليه زيادة الأجور والثوار والتقرب إلى رب الأرباب، فإن تعذر الصرف والعياذ بالله تعالى إلى الجهات المذكورة أو إلى شيء منها كل ذلك مصروفاً إلى الفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيث ما وجدوا.

وجعل هذا الجانب العالي الأميري العزي الوكيل الوكيل الواقف باذن. موكله. مولانا السيد الأجل السلطان الملك المنصور. ثم من بعده رزقه الله أطول الأعمار وملكه سائر النواحي والأقطار للأمثل فالأمثل من أولاده وأولاده وإن سفلوا ثم للأمثل فالأمثل من عتقاء مولانا السلطان الملك المنصور المسمى اعز الله أنصاره، وإذا انقرضوا كان النظر في ذلك لحاكم المسلمين الشافعي المذهب بالقاهرة ومصر المحروسة، ثم من بعده لمن يوجد من حكام المسلمين يوم ذلك على اختلاف مذاهبهم. وصار جميع ما وصف وحدد بعاليه وقفاً محرماً بحرمات الله الأكيدة التي هي أجمع للتحريم، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم أنه إلى ربه الكريم صائر من سلطان أو وزير، أو مشير أو قاضي. أو محتسب أو وكيل بيت مال، أو أمير أو آمر، نقص هذا الوقف ولا نقض شيء منه ولا تعطيله ولا فسخه ولا تحويله ولا السعي في إبطال شيء منه ولا الاعتراض إليه ولا إخراجه عن سبيله فمن فعل ذلك أو أعان أو سعى فيه. وقعت الشهادة عليه بعد قراءته بتاريخ اليوم المبارك يوم الثلاثاء الثاني عشر من شهر صفر المبارك من شهور سنة خمس وثمانين وستمائة، الله يقضيها بخير وحسبنا الله ونعم الوكيل.

المصادر والمراجع

أولاً - القرآن الكريم:

ثانياً - المصادر:

١ - ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ نشر، أو رقم طبعة.

٢ - ابن هشام، عبدالملك بن هشام المعافري: السيرة النبوية، المجلد الثاني، الجزء الثالث،. ط/دار التراث العربي بالقاهرة، طبعة بدون رقم أو سنة طبع.

٣ - ابن الهمام، الكمال: فتح القدير، الجزء السادس، دار الكتب العلمية، طبعة بدون رقم أو سنة نشر.

٤ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوجيز، طبعة وزارة التربية والتعليم، ط/١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

ثالثاً - المراجع:

١ - الأغبري، سعيد: تجربة سلطنة عمان في إدارة الأوقاف، من أبحاث ندوة «نحو دور تربوي للوقف»، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ١٤١٤٨ـ/ ١٩٩٣م.

٢ - أمين، محمد محمد: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، دراسة تاريخية وثائقية، ط/١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م.

٣ - بنعبدالله، محمد بن عبدالعزيز: الوقف في الفكر الإسلامي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، طبعة بدون رقم أو مكان نشر.

٤ - جمعة، علي: الوقف وأثره التنموي، من أبحاث ندوة «نحو دور تنموي للوقف»، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٥ - الخطيب، حنيفة: الطب عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م، طبعة بدون رقم.

٦ - الدسوقي، محمد: الوقف ودوره في تنمية المجتمع الإسلامي، القسم الثاني، سلسلة «قضايا إسلامية»، العدد «٦٥»، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،. وزارة الأوقاف، مصر، رجب ١٤٢١هـ/ أكتوبر ٢٠٠٠م.

٧ - ساعاتي، يحيى محمود: الوقف وبنية المكتبة العربية، استبطان للموروث الثقافي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط/١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٨ - الطنطاوي، محمود السعيد: أضواء على تاريخ الطب، سلسلة دراسات في الإسلام، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، العدد «١٨٣»، السنة السادسة عشرة، جمادى الآخرة ١٣٩٦هـ/ يونيو ١٩٧٦م.

٩ - عبدالواحد، مصطفى: شخصية المسلم كما يصوِّرها القرآن، طبعة وزارة التربية والتعليم، مصر، طبعة بدون رقم، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٠ - العمر، فؤاد عبدالله: إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية، الأمانة العامة للأوقاف، دولة الكويت، سلسلة الدراسات الفائزة في مسابقة الكويت الدولية لأبحاث الوقف (١٩٩٩م)، ط/١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١١ - عيسى، أحمد: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ط/٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٢ - غانم، إبراهيم البيومي: الأوقاف والسياسة في مصر، دار الشروق، القاهرة، ط/١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٣ - الكيلاني، نجيب: في رحاب الطب النبوي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط/ ٥، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، بيروت، لبنان.

١٤ - المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء «١» ط/ بولاق، ١٢٧٠هـ.

١٥ - هونكه، سيجريد: شمس العرب تشرق على الغرب، طبعة بدون رقم أو سنة نشر، ص٢١٥-٣٣٦.

رابعاً - الدوريات والمجلات:

١ - مجلة الأمة: تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، قطر: «الوقف الإسلامي تجربة رائدة في بلاد الغربة»، استطلاع مجلة الأمة، السنة «٣»، العدد «٢٧»، ربيع أول ١٤٠٢هـ.

٢ – مجلة «أوقاف»: مجلة فصلية محكمة تعنى بشئون الوقف والعمل الخيري، تصدرها الأمانة العامة للأوقاف، دولة الكويت، العدد «١»، السنة «١»، شعبان ١٤٢٢هـ/ نوفمبر ٢٠٠١م:

أ – حسين أميدياني: مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز (ص٥٠ – ٧٧).

ب – ياسر الحوراني: آفاق التعاون المشترك بين مؤسسة الوقف والمنظمات الأهلية (ص ٩٨ – ١٢٤).

٣ – مجلة «منبر الإسلام»: يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية: مصطفى إبراهيم خيان: أضواء حول شجرة الوقف الوارفة، السنة «٥٨»، العدد «١٢»، ذو الحجة ١٤٢٠هـ/ مارس ٢٠٠٠م.

٤ – مجلة «الوعي الإسلامي»: تصدرها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت: العدد «١٢٧»، جمادى الأولى ١٣٩٦هـ.